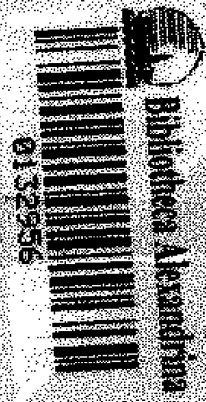


بطرس البستاني

معالم العرب

في الأندلس

دار ماروت عنود



معارك العرب
في الأندلس

بَطْرِسُ النَّبْستَانِي

معارك العرب

في الأندلس

دار ما رو ك عبود

جميع الحقوق محفوظة
لـ (دار مارون عبود)

يوم طليطلة

تلك المملكة التي أسسها بنو أمية في الأندلس ، وحقق عبيد الرحمن الناصر وحدتها ، وبسط بغزواته الظافر سلطانها ، صار أمرها إلى الضعف والانحلال بعد أن سطا عليها الحاجب المنصور وانشأ دولته العامية في قلب دولتها ، حاجراً على الخليفة هشام ، مستقلاً دونه بالنهي والأمر . فاسقط هيبة الأمويين من نفوس أهل الأندلس ، ووطد فيهم هيئته بما أوتي من فتوح وانتصارات .

وانتقل الملك من بعده إلى ابنه عبد الملك ، ثم إلى ابنه الآخر عبد الرحمن ، وكلاهما جرى على سنن أبيه في الحجر على الخليفة ، والاستبداد بالسلطة والنفوذ . غير أن عبد الرحمن طمحت عينه إلى الخلافة ، فطلب من هشام أن يولييه عهده ، فلباه هشام ونزل عند رغبته لما هو عليه من الضعف والاستكانة . فنقم الأمويون

والقرشيون على الخليفة ، وخافوا أن يذهب الأمر من يدهم ، فخلعوه وبايعوا محمد بن هشام ، من حفدة عبد الرحمن الناصر ، فتلقب بالمهدي .

وكان عبد الرحمن غائبا في غزوة ، فلما بلغه الخبر قفل إلى قرطبة ، فأرسل اليه المهدي من قبض عليه واحتز رأسه ، فانقرضت بموته الدولة العمارية . ولكن محمد بن هشام لم يستقر ملكه على حال لأنه جافى البرابرة لميلهم إلى العماريين ، فاتمروا به وبايعوا المستعين بالله سليمان بن الحكم . فانشق البيت الأموي بعضه على بعض ، ونشبت الفتنة بين الأميرين ، فمرة كان ينتصر المهدي فيهزم المستعين ، ومرة كان ينتصر المستعين ، فيلجأ المهدي إلى الملك الأسباني فيمده ويعيده إلى عرشه . ثم تم الأمر للمستعين ، فتغلب البربر على الأحكام وارتفع شأنهم .

وكان علي بن حمود الأدريسي قد جاء من المغرب ، وأخذ يدعو البربر لمبايعته ، معتمداً على نسبه الذي يرفعه إلى علي بن أبي طالب وفاطمة بنت النبي . فبايعه البرابرة ، فقتل المستعين وتلقب بالناصر . فلبثت الخلافة مدة من الزمن تتنقل بين الأمويين والحموديين حتى صارت للمعتضد بالله هشام بن محمد الأموي ، فملك برهة يسيرة ، ثم خانته وزرائه وحرسه فخلعوه فهرب من قرطبة ، وانقطعت به الدولة الأموية . فصار الأمر بعده إلى الوزير أبي

الحزم جَهْوَر فدعا جماعة العظماء إلى مشاركته في الحكم ليأمن معارضتهم ، فارتضوا بذلك ، ونشأ في قرطبة نوع من النظام الجمهوري ولكن من طبقة الاشراف .

وأما ولايات الأندلس فان رؤساء الطوائف فيها من بربر وعرب وموال اقتسموا خططها ، حتى كاد يكون على كل مدينة أمير مستقل فعرفوا ببلوك الطوائف . ومثل هذا التفسخ العميم في جسم الدولة لا يدعو الى التفاؤل بقيام نظام سياسي ثابت تهنأ به تلك الامارات المستقلة ، وبعضها يتفاوت عن بعض في قوته واتساع أرضه ، فلا بد للقوي أن يطمع في ابتلاع الضعيف ليزداد به قوة ، فيجد أمامه أميراً منافساً ينازعه التوسع ، فيأخذ الضعيف تحت حمايته فيصبح تابعاً له . وتقع الحروب بين هؤلاء الأمراء فيشل واحد منهم قوى الآخر ، وربما استنجد بعضهم على بعض . الأمراء المسيحيين ، فيغتتم أولئك الفرصة ، فيهاجمون الأندلس يستولون على عواصمها ، ويخضعون ملوكها ، ويفرضون عليهم الجزية ، أو يجعلونهم عمالاً لهم . ولو لم يكن أمراء اسبانية هم أيضاً على اختلاف مستمر وتنازع فيما بينهم ، لما استطاع ملوك الطوائف أن يستقروا في الأندلس زمناً طويلاً ، مع ما هم عليه من تقسم وتخاذل .

وحاول ابن جَهْوَر صاحب قرطبة ، أن يجمع شتيت الأمراء

إلى دولته متوهمًا أن وجوده في عاصمة الأمويين كافٍ لأن يحمل سائر الولايات على الاعتراف بسلطانه ، لأنها تعودت من عهد بعيد أن تخضع لحكام قرطبة ، فكاتب الأمراء كبارهم وصغارهم يدعوهم إلى طاعته ، فلم يحفلوا به ، ولا تكلفوا مؤونة الرد عليه ، فاضطر أخيراً إلى أن يعترف باستقلالهم مكرهاً ، وفي رأسه خطة يريد تحقيقها ، وهي أن يوسع ملكه باغتصاب الإمارات الصغيرة التي لا قبل لها بمقاومته وحماية استقلالها .

ووجه حملة إلى 'هذيل بن رزين صاحب السهلة ، فقهره واستولى على إمارته . فالتجأ هذيل إلى اسماعيل بن ذي النون أمير ظليطلة ، فبادر هذا إلى انجاده ليحول دون توسع ابن جهور ، فطرد القرطبيين من السهلة وأعادها إلى صاحبها ، ثم ناصب قرطبة العداء ، فاصلاها حرباً طويلة ، تابعها من بعده ابنه المأمون .

وتوفي ابن جهور سنة ٤٣٥ هـ (١٠٤٣ م) ، فانتقل الحكم من بعده إلى ابنه محمد ، ولم يكن كأييه صاحب قوة وعزم ، وإنما عرف بالتعقل والعدالة . فأراد أن يصرف هذه الحرب عنه بالمصالحة فأبأها عليه أمير ظليطلة وصاحب السهلة واضطراه إلى القتال لطمع المأمون في الاستيلاء على قرطبة . إلا أن غارات فردينان الأول على ظليطلة واثخانها فيها ، كان يكره صاحبها على مهادة

ابن جهور حينئذ بعد آخر . فان ملك جليقية (Galice) وقشتالة (Castille) ، لم يغرب عنه ضعف ملوك الطوائف وتناحرهم ، وان الفرصة سانحة لامتلاك بلادهم وبسط سلطانهم عليهم .

فاخذ يهاجم الثغور الاسلامية ، ينتزع المدن والحصون من امرائها ، ويفرض عليهم الجزية ، فاستولى على قسم كبير من الاراضي البرتغالية ، أملاك ابن الأفطس صاحب بطليوس (Badajoz) ، وأغار على الدولة الهودية ، في سرقسطه (Saragosse) فآخضعها وألزم اميرها أن يؤدي له الجزية ويعينه على أمراء المسلمين . وأخضع أيضاً المأمون امير طليطلة وألزمه كما ألزم ابن هود . ثم غزا المعتضد بن عباد صاحب اشبيلية ، فدحره وضرب عليه الجزية . فأصبح أعظم الأمراء الاندلسيين يقدمون الطاعة للملك الجلالة .

ولما صارت طليطلة في حاية فردينان نشط أميرها المأمون يحيى بن ذي النون إلى محاربة ابن جهور صاحب قرطبة مستعيناً بالقشتاليين ، وبإحلافه بني عامر حكام بلنسية (Valence) ، وابن رزين صاحب السهلة . فأحس ابن جهور بالخطر المحدق بامارته ، وانه عاجز عن مقاومة هؤلاء المجتمعين عليه ، فاستصرخ المعتضد ابن عباد صاحب اشبيلية ، وابن الأفطس أمير بطليوس ، داعياً

ايها الى التحالف على طليطلة ، وكانت تهددهم جميعاً ، مؤكداً لها اعترافه باستقلال دولتيهما . فبادرا الى محالفته ، وامداده بالعساكر . ولكن المامون ومن معه من الحلفاء استطاعوا ان يهزموا جيوش ابن جهور وانصاره ، وان يزحفوا الى قرطبة فيضربوا عليها الحصار الشديد . فاصبحت لا نجاة لها من السقوط الا اذا جاءها مدد من الخارج .

فعاد أميرها يستغيث بحليفه صاحب اشبيلية ، وكان المعتضد يطمع في الاستيلاء على قرطبة ليعسط بها حدود مملكته ، فرأى الفرصة سانحة لتحقيق رغائبه ، فامدها بجيش عظيم يصحبه وزيره محمد بن عمار . فسار الجيش اليها ، وكشف الحصار عنها ، فخرج القرطبيون يتعقبون اعداءهم . وفيما هم يدافعونهم ويشخنون فيهم أخذ ابن عمار يحتل العاصمة ، ويمتلك حصونها . وكان أميرها محمد ابن جهور مريضاً ، فأله الخطب لا يستطيع له رداً ، فمات من قهره بعد أيام .

وعاد جيش قرطبة تحقق على راسه الوية النصر ، وقد هزم جيوش طليطلة وأحلافها شر هزيمة . ولم تكن خيانة أشبيلية لتخطر له في بال . فلما رأى عاصمته بأيدي حلفائه ، وأبوابها موصدة في وجهه ، وقف مدهوشاً حائراً أمام فاجعة لا يتوقعها . فدعاه الاشبيليون الى الاستسلام ، وكان على مقدمته عبد الملك

ابن الأمير محمد ، فراعنه ان تنهار دولة أبيه ، فاندفع كالجنون يقاتل مستميتاً ، حتى سقط عن فرسه مغص عليه من ألم الجراح . فارتد الحارث بن الحكم قائد الجيش القرطبي بفرسانه الى مدينة الزهراء ، فلبث معتصماً بها مدة ، ثم جاءه نبأ موت الأمير محمد وابنه عبد الملك ، فترك الزهراء ، وسار الى طليطلة فحالف عدوه ابن ذي النون ، لينتقم من ابن عباد حليفهم بالأمس .

وكانت طليطلة تؤدي الجزية ، كما ذكرنا ، لفردينان الأول ملك قشتالة ، فلما مات قطعها المأمون عن أولاده مستفيداً من اختلافهم ، فقد ثار واحد منهم على الآخر ، ينازع نصيبه من ملك أبيه ، ف وقعت بين الأخوة الثلاثة حروب أهلية متتابة ، تم فيها النصر أخيراً لبكرهم شانجه (Sancho) ، فضم اليه جميع ممتلكات والده سنة ١٠٧٠ م ، وهرب أخوه غرسيه (Garcia) إلى اشبيلية مستجيراً بالمعتمد بن عباد ، وكان قد ولي الأمر بعد أبيه المعتضد .

ولجأ أخوه الثاني الفنس إلى طليطلة مستجيراً بالمأمون ، فاحسن وفادته وأنزله عنده عزيزاً مكرماً . إلا ان شانجه لم يعيش طويلاً بعد استنثاره بالدولة ، فقد قتل غيلةً في كمين نصب له سنة ١٠٧٢ . ويقول المستشرق الالماني جوزف أشباخ ، ان

هذا الكمين حدث بمسعى أخته أوراكا أو أخيه الفنس ، أو كليهما معاً .

ولما انتهى الخبر إلى الفنس ، غادر طليطلة وجاء لاوت فاعتلى عرشها ، نصيبه من أبيه ، ثم جمع إليه عرش قشتالة ، نصيب أخيه شانجه ، وترك جليقية لأخيه غرسية يتمتع بها بضعة أشهر ، ثم انتزعها منه ، بعد أن اعتقله خدعة سنة ١٠٧٣ م ، وزجه مغلولاً في بعض الحصون ، فلبث طوال حياته سجيناً حتى مات .

ولم يغفل الفنس عن تعزيز سياسته في الأندلس الإسلامية ، وله من أمير طليطلة ، صديق آواه يوم كان طريداً ضعيفاً ، فعقد حلفاً بينه وبين المأمون ، تعاهداً فيه على الصداقة الخالصة والتعاون المشترك في ما يؤول إلى خير بلديهما ، فأصبح في وسع صاحب طليطلة أن ينتقم من عدوه ابن عباد ويستولي على قرطبة ، فوجه إليها جيشاً من فرسان طليطلة ، والمرتقة القشتاليين ، معقود اللواء على الحارث بن الحكم ، قائد ابن جهور ، فهاجم الحارث عاصمة الأمويين حين غرة ، ودخلها دون أن يلقي مقاومة ، على أنه ما تحول إلى الزهراء يريد امتلاكها حتى تصدى له سراج الدولة ابن المعتمد بن عباد ، بحرس من المغاربة ، يدافع عن قصور الملوك وذخائرهم ، إلى أن سقط

في المعمة صريماً ، فانهمزم الحرس ، وتم النصر لطليطلة
(٤٦٨ هـ - ١٠٧٥ م) .

ودخل المأمون قرطبة ظافراً ، إلا انه لم يتمتع بانتصاره فقد
توفي ، وكان كبير السن مريضاً . ويقول ابن خلدون ، انه مات
مسموماً وحمل إلى طليطلة فدفن بها . وكان ابنه وولي عهده
هشام قد مات قبله ، فأوصى بالملك لحفيده القادر بالله يحيى بن
اسماعيل ، وكان هذا قاصراً ، فأقام له مجلس وصاية من صديقه
الفسن السادس ، والحارث بن الحكم وبعض الولاة . ولكن هذه
الثقة بحليفه لم تقع موضعها ، فملك قشتالة نسي ضيافة طليطلة
وعطفها عليه ، ونسي صديقه المأمون يوم أمنه من خوف ، وغابت
عنه العهود التي واثقه عليها ، وما أقسم له من الايمان على رعاية
الأمير القاصر وحماية بلاده .

وأبت نفسه الا أن تشعر بشعور العرش والوطن ، فنجحت
عنده مساعي ابن عمار وزير المعتمد ، فارتضى أن يحالف صاحب
أشبيلية عدو الملك الذي هو وصي عليه ، وأن يعده بالمساعدة في
توسعه ومحاربة الأمراء المسلمين . ورضي ابن عباد أن يساومه على
أبناء ملته ، فيترك يده حرة تتصرف في طليطلة ، ثم يؤدي له
الجزية صاغراً ، لا يجد بها غضاضة في سبيل مطامعه . وتروي
الأخبار الاسبانية ، ان المعتمد بن عباد بعث ابنته « سيدة » إلى

بلاط الفنس تمكيناً للصدقة ، فاتخذها هذا حظية له . وكان أمراء اسبانية المسيحية يتسرون يومئذ بالنساء تشبهاً بأمراء الأندلس المسلمين .

على ان الرواية العربية تنفي هذه التهمة عن أمير اشبيلية ، وتلقي نوراً على حقيقة المرأة المسلمة التي صارت في حوزة الملك الاسباني . فقد تمكن المستشرق لاوي بروفنسال من جلاء هذا الحادث الذي بقي غامضاً على المؤرخين المحدثين ، ينفيه بعضهم ، ويثبتته بعضهم الآخر ، وذلك انه عثر سنة ١٩٣٤ على رواية عربية أصح من الرواية الاسبانية وأثبت ، أوردها ابن عذاري المراكشي في القسم الثالث من كتابه البيان المغرب ، وفيها يقول ان البعث الذي أرسله الفنس السادس سنة ٥٠١ هـ (١١٠٨ م) لمحاربة أبي الطاهر تميم أخي السلطان علي بن يوسف ، وكان يحاصر قلعة اقليش (Ucles) ، قتل فيه أمام اسوارها ابنه شانجه من زوجة المأمون بن عباد ، وكانت قد تنصرت مع نحو سبعة آلاف فارس .

فمن رواية ابن عذاري هذه يتبين ان الأميرة سيدة ليست بنت المعتمد بن عباد بل زوج ولده المأمون . وكان المأمون والياً على قرطبة من قبل أبيه ، فلما هاجمها المرابطون ، وعلى رأسهم القائد سير بن أبي بكر ، قتل المأمون في الموقعة ، ودخلها المرابطون ظافرين في ٢٦ آذار سنة ١٠٩١ (٣ صفر ٤٨٤ هـ) .

فالظاهر ان أرملة ابن المعتمد هربت مع ثلّة من فرسانها الى الفنس السادس محتمية به ، ففسرى بها وتنصرت مع جماعتها . ويؤيد ذلك دليل آخر وقع عليه المستشرق هنري ييريس ، وهو عبارة عن فتيا كتبت في اواخر القرن الخامس عشر ، او اوائل القرن السادس عشر ، وصاحبها الفقيه المراكشي يحيى الونشريشي ، أفتى بها جواباً على سؤال : أيستطيع المسلم ان يغادر الأندلس الى افريقية اذا تيسر له ، أم يبقى فيها ليساعد اخوانه في الدين ؟

فكان جوابه بتحتيم الهجرة على من يستطيعها من المسلمين بعد استيلاء الاسبانيين على الأندلس ، محافظة على نسائهم ، لئلا تعقد زوجة بعضهم أو ابنته صلتها باعداء الدين ، فيقودها الأمر الى ترك الاسلام ، كما أصاب كنة المعتمد بن عباد وأولادها الذين تنصروا معها وهم أبناء المامون .

وبينا ابن عباد يزحف بجيشه الى غرناطة ليخضع صاحبها ابن باديس ، إذا الفنس يتها لغزو طليطلة واحتلالها (١٠٧٩ م) ، وكانت قد ثارت على أميرها القادر بن ذي النون لأكثاره من فرض الضرائب ، إرضاء لشهواته وترفه ، أو اشباعاً لمطامع ملك قشتالة . فجاء الفنس الى طليطلة متذرعاً بحجة الدفاع عن حليفه ، فعاث في ولايتها مخرباً قراها وحصونها ، ثم ارتد عنها عندما بلغه ان المنصور أمير بطليوس قادم لتجديتها . وعاد في العام التالي يفسد

في بساطها ، ويستبد بقلاعها وزروعها . وما زال يوالي عليها الغارات في كل عام حتى أضعفها ، ونهك قواها ، ورمها بالضيق والفاقة . ثم دلف اليها في السنة السادسة يبغى العاصمة نفسها . فالتقى عليها الحصار حتى منع عنها كل صلة ومسد . فراح تستغيث بأمير بطليوس ، فأمدها المتوكل بن الأفطس بجيش على رأسه ولده الفضل ، ولكنه لم يثبت أمام قوات الفنس الساحقة فانهزم مدحوراً ، ولم يبق للقادر أمل من النجاة .

وكان الجوع يهدد المدينة فخاف أن يثور عليه الشعب فيقتله ، فأرسل الى الفنس يطلب الصلح على أن يؤدي الجزية ، ويكون تابعاً له ، فرفض الفنس مطالبه ، واشترط عليه أن يفتح أبواب المدينة ويسلمها اليه ، واعدأ بأن يحافظ على أرواح المسلمين ومقتنياتهم ، وأن يترك لهم المسجد الجامع يصلون فيه ، وأن لا يعارضهم في دينهم وشرائعهم . وخيرهم في البقاء او المهاجرة . فمن أحب البقاء يؤدي الجزية كما يؤديها المسيحيون في بلاد المسلمين . ومن آثر الهجرة يُسمح له بأن يحمل أمواله حيث يشاء . وضمن للقادر أن يدع له امارة بلنسية يتصرف فيها ، ولا ييخل عليه بالمساعدة اذا احتاج الى الدفاع عنها .

في الخامس والعشرين من ايار سنة ١٠٨٥ م دخل الفنس السادس ، ملك قشتالة ولاون وجليقية ، عاصمة القوط القديمة بابهة وجلال

منتزعاً من العرب احدى قواعد الأندلس الكبرى : طليطلة العاصية
التي طالما تمردت على أمراء المسلمين ، فبذل عبد الرحمن الناصر ،
والحاجب المنصور من بعده ، أعظم الجهود لاختضاعها وكسر
شوكتها ، فكان يومها المشؤوم كارثةً على الأندلس العربية لأن قشتالة ،
حين تملكته ، أصبحت جائمة على ضفتي نهر التاج ، ممدودة النظر
الى ثغور المسلمين .

معركة الزلاقة

مالبث المعتمد بن عباد، أمير اشبيلية ، ان ساوره الندم على مخالفته الفنس السادس ملك قشتالة ومعاذته له في انتزاع طليطلة من القادر بن ذي النون ، فان العاهل الاسباني ما كاد يحيط بنهر التاج من عدوتيه ، مستطيلا على منافذ الأندلس العربية ، حتى نهذ يفتتح قلاع الشاطئين وما حولها من المدن والضياح ، وراح يهدد قرطبة وماردة (Mérida) وبطليوس (Badajoz) ، فذعر المعتمد وتراءى له الخطر المحدق باملاكه ، فأرسل الى الفنس يستوقفه عن الفتح ، ويطلب منه أن يراعي المعاهدة التي بينهما فلا يتجاوز طليطلة .

فرد عليه الفنس بما عرف به من دهاء ومراوغة ، وهو انه انما يملك ولاية طليطلة كلها شريكاً لصديقه القادر بن ذي النون

صاحب بلنسية . وكان المعتمد منصرفاً يومئذ الى محاربة ابن باديس صاحب غرناطة طامعاً في ضم هذه الامارة الى مملكته ، فاراد الفنس ان يظهر له حسن نيته من حيث يروم خداعه ، فأمدّه بخمس مائة فارس مدرع من الاسبانيين ، ليقاتلوا معه في غرناطة ، فاجس المعتمد شراً ، وازعجته هذه النجدة التي لم يرغب فيها ، ولا شاقه قدومها ، ففضل أن يصالح ابن باديس على ان يستبقيا عنصراً خطراً في جيشه .

فلما عادت الى طليطلة دون ان تسفر بعثتها عن نتيجة ترضي ملك قشتالة ، كتب هذا الى المعتمد يطلب منه ان يتخلى له عن الحصون التي يمتلكها في ولاية طليطلة . فعظم الأمر على امير اشبيلية ، وأوجعه خطؤه وسوء سياسته ، وعلم ان لا سبيل الى كبح مطامع الفنس الا اذا قابل الشدة بالشدة . وهو وان يكن يحمل اليه الجزية كغيره من ملوك الطوائف ، الا انه كان أوسعهم دولة ، واقواهم سلطاناً ، فلماذا لا ينقض على الطاغية ، ويرفع عن مخنقه يداً قاسية القبض ؟ بل لماذا لا يسعى الى دعوة الامراء المسلمين ان يتركوا الخلاف ويتحدوا لدرء الخطر المشترك ؟ فقد آن لهم ان يطهروا قلوبهم من أحقادها ، ويمد بعضهم الى بعض يده مضافاً ومعاوناً .

فالأمراء المسيحيون في اسبانيا أدركوا قبلهم ضرورة التعاضد

للتغلب عليهم واخراجهم من تلك الأرض الجميلة التي افترضها
أجدادهم ، فتناسوا ما بينهم من عداة قديم يفرقهم ويضعفهم ،
فاجتمعت كلمة الفنس السادس وشانجه (Sancho) صاحب
أرغون ونافار ، ورمند برنجه (Reymond Berenguer) أمير
برشلونة ، فنهضوا نهضة واحدة لينقضوا على العدو الغريب متيمين
بتخاذله وانقسامه .

فتى يدرك امراء الأندلس ما أدركه امراء اسبانية فيهبوا
للدفاع عن أرضهم متضافرين لا متفسخين ؟ أمّا يخلق بالمعتمد بن
عباد أن تدور هذه الفكرة في رأسه عندما جاءته رسل الفنس
تستنزله عن حصونه في ولاية طليطلة ؟ فإذا به لا يتلصكاً عن
الرفض ، حاملاً نفسه على الخطة الصماء يريد فصلها ، وإن ساءت
مغبة الفصل . فآثر رفضه سخط العاهل القشتالي كما كان
ينتظر ، فنقض الحلف وجاهره العداة ، ثم زحف بجيوشه يضرب
في ولايات الأندلس فاستولى على قورية (Coria) من بني الألفس ،
وأغار على بسائط أشبيلية . فآخن فيها وأحرق قراها وحقوقها ،
حتى بلغ جزيرة طريف ، فأدخل قوائم فرسه في البحر وقال :
« هذا أقصى بلاد الأندلس قد وطئته » .

ثم ارتد إلى قلعة سرقسطة (Saragosse) يبتغي فتحها ،
فالتقى عليها حصاراً شديداً ، وأعمل الحديد والنار في ولايتها .

فدافعت عاصمة الدولة اليهودية عن نفسها دفاع المستبسل المستميت . ولكن الاسبانيين ضيقوا الخناق عليها ، فراحت تستغيث بجاراتها المسلمة . وملوك الطوائف ضعاف متمزقون يبصرون الكارثة مقدوفة اليهم ، فتنخلع قلوبهم هلعاً ، ولا يستطيعون لها رداً . وهالهم ان تسقط سرقسطة بعد طليطلة ، قاعدة تلو قاعدة ، فإذا يكون مصير الأندلس إن لم يهبوا متساندين للنضال عنها ؟ فالمصيبة جامعة لا تعف عن واحد منهم ، ولا يؤمل بغير الاتحاد الحوول دون استشرائها .

فتداعوا إلى مؤتمر يعقدونه في مملكة ابن عباد ، أعظمهم دولة ، فاجتمعوا في إشبيلية ، ثم في قرطبة ، واتفقوا على ضم جهودهم لدفع المغير وانقاذ سرقسطة . بيد انهم لم يكونوا واثقين بالظفر ، لما يعلمون من ضعف قواهم ازاء القوات الاسبانية القاهرة . فقرروا أن يستنجدوا يوسف بن تاشفين أمير المرابطين في عدوة افريقية ، وكان صاحب شوكة وسلطان ، يسيطر على شعب مخشوشن الأبدان يستطيب الحرب والكفاح ، لم ينغمس في الترف والملذات ، كأهل الأندلس ، لتخور عزائمه فيستكره القتال .

ولا يُتوقع أن يصم زعيم المرابطين اذنيه عن نداء إخوانه المسلمين ، لما به من حمية للدين ، ثم لما يضر في نفسه من

مارب يهزه لفتح الأندلس والحاقها بأفريقية ، ما دام امراؤها ضعافاً متواكلين ، لا يملكون وسائل الدفاع لحمايتها . فمن الخير للمسلمين أن يدخلها المرابطون ، ويمنعوها أن تقع في قبضة المسيحيين .

يبد أن يوسف بن تاشفين ، على رغبته الشديدة في الذود عن أبناء ملته ، وبسط سلطانه على الأندلس ، لم يسرع إلى تلبية ملوك الطوائف دون أن يتبصر بالامر ويقبله على وجوهه ، فقد كان يجهل أرض الأندلس ، ولا يعرف إلا الشيء القليل عن الأمراء المسيحيين . فاشفق أن يغرر بجيشه في بلاد غريبة ، قبل أن يحتاط للطوارئ ، ويتدبر عواقب مغامرته واقدامه ، فدعا اليه كاتبه عبد الرحمن بن أسبط الأندلسي ، وطلب منه أن يشرح له أحوال إسبانيا ، وما يحول من العقبات دون التغلب عليها .

فذكر له الكاتب ، ان المسلمين هناك لا يعمرون إلا ثمن البلاد ، في حين ان النصارى يعمرون سبعة أثمانها . وشبه إسبانيا بسجن لمن دخلها ، لا يخرج منه إلا تحت حكم صاحبه . فإذا كان الأمير عاقداً نيته على العبور إليها ، فيحسن به أن يجيب المعتمد ابن عباد ، بأنه لا يمكنه الجواز اليه ، إلا إذا تنازل له عن الجزيرة الخضراء ، ليجعلها مقر أجناده وأثقاله . ويريد

عبد الرحمن بذلك أن يبقى سيده متصلاً بأفريقية ، حتى إذا أخفق في حملته لا تسد عليه طريق الرجعة إليها . فاستصوب الأمير هذا الرأي ، فكتب به إلى صاحب إشبيلية ، ولبث ينتظر الجواب ويتأهب للقتال .

وكان الفنس في تلك الأثناء ، قد ثقلت وطاته على الولايات الأندلسية ، فلقي ابن هود أشد العناء في الدفاع عن سرقسطة ، وما سلمت من التخريب بسائط إشبيلية وحصونها . وبات الخطر يهدد المتوكل بن الأفطس أمير بطليوس . فرأى المعتمد بن عباد أن يستوقف شر الملك الإسباني بإداء الجزية والنزول له عن الحصون المتاخمة ، فأرسل إليه يسأله الهدنة ، ويبيدي رغبته في تسليم الحصون ، وتقديم الأتاوة .

فأوفد الفنس بعثة على رأسها أحد قواده ، ومعه يهودي يقال له ابن شاليب ، ماهر في نقد الدراهم الزائفة . فنزلوا في ظاهر المدينة ، فوجه المعتمد اليهم المال مع جماعة من وجوه دولته ، فطلب ابن شاليب أن ينظر فيه قبل تسلمه . فاستاء الوفد الإشبيلي ، وعدوا ذلك إهانة لهم ولأميرهم . فاحتدم الجدل بينهم وبين البعثة الإسبانية ، فأصر اليهودي على طلبه ، فاقترح القائد السفير أن يقدم ، ابن عباد ، بدلاً من المال سفناً حربية . فعاد المندوبون بالمال إلى سيدهم ، وأخبروه بما حدث ، فتلظى

حنقاً حتى خرج عن دائرة اعتداله ، فأمر بقتل السفير ومن معه ، وكانوا ثلاثمائة ، ولم ينج منهم غير ثلاثة تمكنوا من الفرار . ويري صاحب « نفح الطيب » عن ابن اللبانة ، شاعر المعتمد ، ان الامير لم يقتل من البعثة غير اليهودي ، فقد أمر بصلبه . واما المسيحيون فانه اكتفى بأن يزجهم في السجن .

ويقول ابو عبدالله الحميري ، في « الروض المعطار » ان الفرس طلب زيادة على الضريبة والحصون ، ان تأتي إمرأته إلى قصور الزهراء فتنزل فيها الى ان تلد ، لان القسيسين أشاروا عليها بأن تتردد على الجامع الكبير في قرطبة لتتبرك مدة حملها بزيارة الكنيسة التي كانت بجانبه الغربي قبل بنائه ، فرفض ابن عباد هذا الطلب ، فراجع ابن شاليب واغلظ له القول ، حتى أغضبه فأمر بصلبه منكوساً .

ثم فكر بما يحجر عليه هذا الحادث من وخيم المغبة ، فملك الجلالقة لا يصبر عن الاثثار لبعثته ، وقد اتسع الخرق بينهما فما يمكن استرضاءه الا بشروط لا تطاق . فوطن النية على استدعاء المرابطين ثانية ، والتنازل لزعيمهم عن الجزيرة الخضراء . فدعا ابنه الرشيد ولي عهده ، وافضى اليه بما يعتزم عليه . فمانع الرشيد وحذر والده خطر المرابطين اذا دخلوا الاندلس

وامتلكوا قاعدة فيها .

فاجابه المعتمد بكلمته الماثورة : « رعي الجمال خيرٌ من رعي الخنازير » ، اي انه يفضل ان يكون ماكولاً ليوسف بن تاشفين يرعى جماله في الصحراء ، على ان يكون اسيراً عند الفنس ، يرعى خنازيره في قشتالة .

وتلقى امير المرابطين دعوة ابن عباد ، وكان ينتظرها ، فحشد جيشه في سبتة ، ثم اجتاز المضيق الى الجزيرة الخضراء ، في شهر ربيع الآخر ٤٧٩ هـ (آب ١٠٨٦ م) ، فوجد امير اشبيلية قد خف لاستقباله في مائة فارس ووجوه اصحابه . فتقدم المعتمد يريد تقبيل يده اظهاراً لطاعته ، فمنعه يوسف ، فتصافحا وتعانقا كصديقين ، لا كتابع ومتبوع . ثم تسلم الزعيم الافريقي الجزيرة ليتصرف فيها ، فاحتل بجيشه قلعتها ، واهتم بتعزيز حصونها ، وتنظيم حاميتها ، واعداد المؤن والذخائر فيها لتكون له موئلاً يفرع اليه اذا حالفه النصر في حملته .

فلما أتم تجهيزها شخص الى اشبيلية فلبث ثمانية ايام يؤهب جيوشه منتظراً في الوقت نفسه قدوم الامراء الاندلسيين بقواتهم لينضموا اليه . حتى اذا اكتملت عدة الجيوش المتحالفة ، زحفت من اشبيلية تجوز املاك امير بطليوس ، فسار فرسان المرابطين في الطليعة وعدتهم عشرة آلاف يقودهم داود بن عائشة ،

ثم الجيش الاندلسي ، وعلى رأسه المعتمد ، ثم الجيش الصحراوي يتقدمه يوسف بن تاشفين ، وبينه وبين جيش ابن عباد ، يوم واحد ، حتى بلغوا بطليوس ، فزلوا بظاهرها ، فخرج اليهم اميرها المتوكل ابن الافطس ، فلقاهم بما يجب من الضيافات والاقوات .

وكان الفنس لا يزال يحاصر سرقسطة ، ويرميها بالحملة اثر الحملة وهي تدافع عن نفسها يائسة ، فلما عرف بمجيء المرابطين وزحفهم اليه مع القوات الاندلسية ، خاف على طليطلة والممتلكات الجنوبية ان يقع فيها العدو ، فرفع الحصار عن العاصمة الهودية ، وارتد إلى طليطلة يحشد العساكر من قشتالة ولاون وجليقية (Galice) وبسكونية (Biscaya) وأشتوريش (Asturias) ، ومن الأراضي الاسلامية التي افتتحها وأخضعها ، وجاءته النجدة المتطوعة من ولايات فرنسة الجنوبية طامعة في المغنم أو مجاهدة في سبيل الدين . ودعا إلى معوته حليفه شانجه أمير أرغون ونافار ، ورمند أمير برشلونة .

فلبيا دعوته وانضما اليه بقواتها . فاجتمع لديه جيش عظيم ، تختلف الروايات الاسلامية في تقديره ، فمنها ما يبالغ فيه فيجعله مائتي الف راجل ، وثمانين الف فارس . ومنها ما يذهب إلى الاعتدال فلا يرتفع به عن الثمانين الفا ، منهم أربعون الفا من

ذوي الدروع الثقيلة . ويقدره ابن الأثير بخمسين ألف مقاتل .
ويجعله ابن خلكان أربعين ألف فارس غير ما انضم إليه من
الأتباع . ولا تتفق الروايات الإسلامية على عدد جيوش المسلمين ،
فمنها ما يرفعه إلى ثمانية وأربعين ألفاً ، نصفهم من الأندلسيين ،
ونصفهم الآخر من المرابطين . ومنها ما يهبط به إلى العشرين
ألفاً . ولكنها تجمع كلها على أن عدد المسلمين كان أقل من عدد
المسيحيين .

وأما الروايات المسيحية ، فإنها لا تشير إلى عدد الجيوش
النصرانية ، وإنما تذهب إلى تقدير الجيوش الإسلامية بزهاء مائة
ألف ، أو تظهر عجزها عن احصائها ، فتقول أنها كانت كالجراد
المنتشر . ويفترض المستشرق الألماني جوزف أشباخ عدداً متساوياً
للفريقين ، فيقدر أن كل واحد منهما كان يجمع نحو مائة وثلاثين
ألفاً إلى مائة وخمسين .

ونحن إذا نظرنا إلى الولايات المتسعة في مملكة الفنس ، وما
يُحتمل استمداده من القوات الخليفة والمتطوعة ، لا نستكثر
خروجه بمقدار مائة ألف لقتال عدو يشعر بخطره بعد اجتماع
الأفريقيين والأندلسيين عليه . وكذلك لا يُعقل أن يوسف بن
تاشفين يعبر إلى الأندلس بأقل من أربعين إلى خمسين ألفاً ، وهو
مقدم على الحرب ، في بلاد غريبة متباعدة ، رأينا كاتبه عبد الرحمن

يحتشد في تحذيره منها . واذا كانت فرسانه عشرة آلاف كما ذكرنا ، فلا ينبغي أن يقل عدد الرجالة عن الثلاثين أو الأربعين ألفاً . ثم ان أمراء الأندلس في تحالفهم على الكارثة المشتركة لا يستغرب أن يبلغ حشدهم خمسين ألفاً على أقل تعديل ليتخلصوا من عدو يخيف طالما هدد وجودهم ، وقد سنحت لهم الآن فرصة تنوؤها طويلاً حتى حصلوا عليها .

فان تكن العساكر الصحراوية والأندلسية ، دون العساكر الإسبانية في مجموعها بحسب رواية المؤرخين المسلمين ، فلا يمكن التسليم بأنها تقل عنها كثيراً ، فكلا الجيشين قوي متاهب أحسن الأبهة ، والموقف خطر رهيب ، والمصير غامض لا ينجلي إلا في اللقاء .

وجاءت الأنباء ان الفنس زاحف بقواته الى بطليوس . فنشط القواد المسلمون الى ترتيب صفوفهم ومعسكراتهم ، وخطب يوسف بن تاشفين وابن عباد في أصحابها ، وقام الفقهاء يحضونهم على الثبات ، ويحذرونهم من الفشل . ثم جاءت الطلائع تخبر أن العدو مشرف عليهم صبيحة يومهم ، وهو يوم الأربعاء . فخرج المسلمون مبكرين وأخذوا مصافهم . وأقبلت الجيوش الإسبانية بخيلها ورجلها تملأ الفضاء ، فزلت على بضعة أميال من بطليوس ، في سهل تتخلله الغابات يُعرف باسم الزلاقة

(Sacralias) ، وعسكرت تجاهها الكتاب الأندلسية ينصل بينها
نهر صغير .

أما يوسف بن تاشفين فقد جعل معسكره وراء أكمة عالية ،
في عزلة عن معسكر الأندلسيين . فلما أخذت العساكر الإسبانية
مخلاتها ، أرسل زعيم المرابطين الى الفنس يعرض عليه الدخول في
الاسلام ، أو تأدية الجزية ، أو مباشرة القتال كما هي السّنة . ومن جملة
ما قاله في الكتاب بحسب رواية نفح الطيب : « بلغنا يا ادفنش انك
دعوت الى الاجتماع بنا ، وتمنيت أن يكون لك سفن تعبر فيها
البحر إلينا . فقد عبرنا اليك ، وقد جمع الله تعالى في هذه
الساحة بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك ، وما دعاء الكافرين
إلا في ضلال . »

فلما أطلع الفنس على مضمون الكتاب ، رماه الى الأرض
مغضباً ، وقال للرسول : « اذهب فقل لمولايك اننا سنلتقي في
ساحة الحرب . »

ولم يشأ العاهل الإسباني ان يياشر القتال ، قبل أن يلجأ الى
بعض خدائعه المعهودة ، فبات ليلته لا يحرك ساكناً ، والمسلمون
يحسبون ان المعركة ناشبة حتماً غداة الخميس . فهبّوا في الصباح
يستعدون لخوضها ، واذا رسول من الفنس يحمل كتاباً الى يوسف
ابن تاشفين يقول فيه : « غداً يوم الجمعة وهو عيدكم ، والأحد

عيدنا ، فليكن لقاءنا بينهما يوم السبت . ، وفي رواية اخرى انه استثنى يوم السبت أيضاً ، لانه عيد اليهود ، وفي المعسكرين كثير منهم ، واختار للقاء يوم الاثنين .

فاستحسن الأمير المغربي هذا التأجيل وخاله عدلاً ، فوافق عليه ، ولم يعلم ان الفنس يرمي به الى تعطيل أهبة المسلمين لياخذهم يوم الجمعة على غرة وهم غير مستعدين . ولكن المعتمدين عباد كان قد بلا مكاييد حليفه بالأمس ، وذاق سموم أكاذيبه ، فلم يطمئن فؤاده الى هذا الاقتراح المريب ، واستشعر الحيلة من خلاله ، فبث عيونه في الليل يتجسسون حركات الاسبانيين ، فعادوا اليه يخبرونه بانهم اشرفوا على محلة الفنس ، فسمعوا ضوضاء الجيوش واضطراب الاسلحة . فبعث الى السلطان يوسف يطلعه على الامر ويستحث نصرته . وكانت الفنس قد جعل جيشه قسمين ، احدهما يقوده غرسيه ، والثاني يتقدم جناحيه شانجه ورمند ويقوم هو في قلبه . فعند السحر ، حمل جيش غرسيه اولاً يريد مباغته الاندلسيين ، واذا داود بن عائشة يصدمه بفرسان المرابطين ، ويكسر من حدة هجومه .

ولم يكن الاسبانيون ينتظرون هذه المفاجأة فانكفؤوا الى خط دفاعهم الثاني ، ثم اصلحوا ارمهم وعادوا الكرة على المرابطين . وحمل معهم الفنس بسائر الجيش ، يخترق فرسانه المدرعون بالحديد

الخطوط الاندلسية ، وقد ارتفع الى السماء صياح الاسبانيين وقرع طبولهم . وكانت الحملة رابعة عنيفة ، فلم يصبر لها امراء الاندلس ، فتراجعوا مفلولين ثم ركنوا الى الفرار ، فطاردهم المسيحيون الى اسوار بطليوس . ولم يثبت في الميدان الا فرسان اشبيلية واميرهم المعتمد بن عباد ، والفرسان المرابطون ، وقائدهم داود بن عائشة ، فانهم لبثوا يحاهدون الاعداء صابرين على عض السلاح ، مستهينين بالموت ، لا يطلبون النجاة .

وأظهر ابن عباد من ضروب البسالة ما يملأ النفس اعجاباً ، فقد احاط به الاسبانيون من كل جهة ، فانكشف بعض اصحابه ، وفيهم ابنه عبدالله ، فأخذ يقتحم الصفوف معرضاً نفسه للوبال ، فشجّ رأسه ، وجرحته ينفى يديه ، وطعن في احد جانبيه ، وعقرت تحته ثلاثة افراس ، وهو يجالد مستأسداً لا يترك المعركة ، ولو لم ينقّس عنه داود بن عائشة بعض الشيء لكانت عليه المحنة اشد واقسى .

فقد جاهد القائدان بفرسانها أروع جهاد ، حتى لم يبق لهما امل من الدفاع ، فارتدّا باصحابهما الى الاسوار ملتحقين بامراء الاندلس الذين انهزموا في بدء المعركة ، واسلموا محلاتهم ، فاستفاد منها الاعداء في انقضاضهم وتطويق الذين صبروا وصابروا من المسلمين . وتتبعهم الفرس بالمطاردة ليجوز عليهم ، فتصدفت

وراءهم فرسان اسبانية تضرب في اقفاهم ، وبارق النصر يلوح لها
مشعاً لماعاً .

وظن الفنس واهماً ان الكسرة وقعت على جيوش المسلمين
باجمعها ، وان يوسف بن تاشفين والصحراويين في جملة المندحرين ،
ولكن ساء قاله ، فبينما هو يطارد المنهزمين ، واصحابه يتباشرون
بالظفر ، إذا بالصرخة تتعالى وراءه في معسكره ، وقرع الطبول
يتجاوب في الهواء . وكان زعيم المرابطين قد خرج بعساكره من
وراء الالكمة ، وأمر قائده أبا بكر ، ان يخف بقوة من السبرر
لمعونة المعتمد بن عباد والاندلسيين . وسار هو بفيالقه الضخمة
الى معسكر الاسبانيين ، فاناخ عليه ، فوقع بحاميته ، وانتهب ما
فيها من الذخائر والسلاح . وضجت أصوات طبوله ، فاستكّت لها
آذان الفنس ورجاله .

وجاءه النبا المشثوم وهو في نشوة الظفر يتعقب الاندلسيين ،
ويبعثر البرابرة الذين جاؤوا لنجدتهم . فترك المطاردة ، وارتد
بجيوشه الى المعسكر لينقذه من أيدي المرابطين . وابصر يوسف
بن تاشفين عنف الكرة ، فحاد عنها خارجاً لهم عن المحلة ، ثم كر
عليهم فاخرجهم . ثم كروا عليه فاخرجوه . وتوالت الكرات
والمعسكر ينتقل من يد الى يد . وكان امير المرابطين يمر بين
مناقات المسلمين يحرضهم ، ويقوي نفوسهم على الجهاد والصبر

ويقول : « يا معشر المسلمين ، اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين ، ومن رزق منكم الشهادة فله الجنة ، ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة . » فقاتل المسلمون في ذلك اليوم قتال من يطلب الشهادة ويرغب في الموت . وقاتل المسيحيون أصدق قتال ، وصبروا أعظم الصبر ، وفي نفوسهم ما في نفوس أعدائهم من الحمية للدين والوطن . فتساقطت ألوف الضحايا من الفريقين حتى غصت بهم ساحة القتال ، وخاضت الخيل في برك من الدماء ، وسقط فيها جماعة فغرقوا في دم قتلاهم . وصارت الأرض ترتجف من وقع حوافر الجياد ، وانعقد العجاج فأظلم النهار .

وكان المعتمد بن عباد ، وداود بن عائشة قد جمعا شمل فرسانها بعد ان كف الفنس عن المطاردة ، فارتدا بهم في أثر المسيحيين ، وارتد بعدهما المنهزمون من أمراء الأندلس وقد اشتدت عزائمهم حين تنسموا ريح النصر ، فأخذ الاسبانيون من الجانبين ، فتناهبتهم شفار السيوف تحصد من الأمام والوراء ، وهم لا يفترون عن المكافحة غير مصدقين انهم خسروا المعركة ، يكرون على معسكرهم يستعيدونه من المرابطين ، ثم ينتزعه المرابطون من أيديهم ، ثم يرجع اليهم ، وهم في الوقت نفسه يقاومون الأندلسيين في مؤخرتهم ، حتى دنت ساعة الغروب ، فكره يوسف بن تاشفين أن ياتي الظلام ويفصل بينه وبينهم على غير نتيجة ، فأمر رجاله السودان ، فترجلوا عن مطاياهم وعدتهم أربعة آلاف ، بأيديهم

السيوف والدرق ومزاريق الزان ، فاقتحموا خيول الاسبانيين ، وأعملوا الطعن في بطونها وصدورها ، فازورت بفرسانها وخامت عن المعترك من ألم الجراح .

وحملت جيوش المسلمين حملة صادقة ، فانهزم الاسبانيون متخليين عن معسكرهم لا يأملون العودة اليه ، فاستحرج القتل فيهم ، فلم يفلت منهم غير طويل العمر . وأبى الملك الفنس أن يهرب ، فلبث يجمع صفوفه ويقاتل مستتبلاً مخاطراً بحياته ، فلحقه أحد السودان ، فلصق به وطعنه بخنجر فائتته في فخذه ، وهتك حلق درعه ، فبادر اليه خمس مائة من فرسانه الدارعين فانقضوه ، ولكنه رفض أن يترك ساحة القتال ، وآثر الموت على أن يرضى بالهزيمة . فساروا به على كره منه إلى تلٍ مما يلي المعسكر ، ثم انحدروا إلى قورية يستريحون الظلام ..

وخسر الاسبانيون أكثر جيشهم في هذه الموقعة . وكذلك كانت خسارة المسلمين جسيمة ، لأن الضائقة لزمته معظم النهار . بيد أنهم وجدوا تعزية في النصر البهيج ، فاقاموا مهرجان الفرح مساء يومهم ، وبعث المعتمد بن عباد حمامة إلى عاصمته تحمل رسالة البشرى لولده الرشيد ، فقرئت على الناس في المسجد الجامع ، واحتفلت اشبيلية بالنصر في اليوم نفسه على ما بينها وبين بطليوس من البعد . وبات الجيش ليلته في ميدان القتال ، حتى تنفس

الصبح ، فجمعت الوف من رؤوس الاسبانيين على شكل ماذنة ،
وقام فوقها المؤذن ينادي : حيّ على الفلاح !

وانتهت معركة الزلاقة بيوم واحد ، الجمعة ٢٣ كانون الأول
١٠٨٦ م ، فدوّنت حدثاً عظيماً في تاريخ الاسلام ، فهي وان تكن
فتحت أبواب الأندلس لمرابطي افريقية ، لقد أثبتت فيها أقدام
المسلمين مدى أربعة قرون .

رذريق والمرابطون

عاد أمير المسلمين من معركة الزلاقة يجرر ذيل المجد ومن
حوله ملوك الطوائف ، يسعون اليه بتحايا الشكر وعرفان
الجميل ، وهم بين سكرة النفس الغائبة ، وصحوة الفكر الحاضر ،
تهزّهم اهازيج العساكر المنتصرة ، فيستسلمون للغبطة والتمنّ ،
ثم يلوح لهم وجه يوسف بن تاشفين ، في عبوسه واستعلاء
نظراته ، ويسمعون أصوات المرابطين ترتفع على أصوات الجنود
الأندلسية ، فترتعد الغبطة في قلوبهم ، ويستحيل اليمن طيرة
وشؤماً .

يشوقهم أن يترشفوا غرة الجو مشرقاً صافياً ، بعد أن تلاشت
عاصفة الاسبان ، وتمزقت سحائبهم في الشمال . فتروعهم غمامة
مظلة من الجنوب ، كثيفة سوداء .

ينظرون إلى زعيم المثلثين يسير في المقدمة عظيمًا بقوته وبطشه ، عظيمًا بورعه وتقشفه ، فلا يلكون النفس عن الاعجاب بأمير مسلم ، أنقذ الأندلس المسلمة ، وأبعد عنها خطر المسيحية ، فيودون لو ينطق بكلمة تبدد أوهامهم وتبعث الطمأنينة في الصدور ، لينقلب هذا الاعجاب حبًا ومودة . ولكنه صامت لا يحدثهم بشيء عن إماراتهم ومصايرها ، فإذا هم ، بكرهم منهم يخافونه على بلادهم ، أكثر مما يخافون الفرس والقشتاليين .

ولم يكن خوفهم في غير محله ، فان سلطان مراكش قد عقد نيته على البقاء في الجزيرة ليشرف من كسب على الدويلات العربية ، ويتابع جهاد الاسبانيين ورد غاراتهم . ولعله ابتدأ منذ اليوم يعتبر الأندلس ، ولاية من أعمال افريقية ، لما رأى من عجز امرائها وضعفهم وتحاذلهم .

غير انه فكر في شيء وفكرت الاقدار في شيء آخر . ففيها هو يتأهب للقيام بغارة جديدة ، جاءه نعي ولده أبي بكر سير ، وكان قد أقامه نائباً عنه في مراكش يدير أمورها ، فاضطر إلى الاسراع في العودة لتنظيم حكومته . إلا انه ترك الجيش الصحراوي في الأندلس برئاسة قائده سير بن أبي بكر ، فاستأنس ملوك الطوائف بعض الشيء ، وسرهم أن يبتعد الظافر

عن أرضهم ، منصرفاً إلى العناية بشؤون مملكته الإفريقية ،
فاستأنف بعضهم الفارات على الامارات الاسبانية والبرتغالية يعاونهم
جيش المرابطين ، فكانوا ينجحون في مكان ويخفقون في
مكان آخر .

ولم يخطر لهم في بال ان الفنس السادس ستقوم له قائمة بعد
موقعة الزلاقة ، وقد خسر فيها نخبة فرسانه ومعظم جيشه
وعتاده . وبقينا لو أصابت هذه الكارثة رجلاً غيره لحطمت
عزيمته وقضت على مساعيه . ولكنها أصابت جباراً مريداً لا يسهل
على الاحداث تدوينه واقعا دماته . فانه ما انفك ، منذ هزيمته
المشؤومة ، يستنفر الاسبانيين والفرنسيين ، حتى تم له بعد عام
حشد جيش عظيم في عدته وعدده ، فخرج به سنة ١٠٨٧ م ،
مغيراً على الأندلس ، مخرباً فيها ، مفتتحاً بعض مدائنها ، مهدداً
ملوكها ولا سوا المعتمد بن عباد .

وعبثاً حاول هؤلاء الامراء ان يدفعوا البلاء عن ديارهم ،
وهم على تحاسدهم ، وطمع قوتهم في ضعفهم ، لا يخلصون النية
للتعاون المشترك ، يتحالف منهم فريق ، ويتخلف فريق آخر .
ولا يتلكأ بعضهم ان يكيد لبعض ، فكان يوم الزلاقة أنساهم ما
جر عليهم تفسخهم بالامس ، وكان بعد يوسف بن تاشفين أغفلهم
عما يهددهم في الغد . وكان المعتمد اشداهم طموحاً إلى بسط

سلطانه والاستئثار بالنفوذ لاعتداده عليهم بالقوة واتساع الملك .
فحدثته نفسه بخطة خرقاء لم يحسب حساباً لنتائجها . فرأى ان
يعبر المضيق الى المغرب ويشرح لامير المسلمين احوال الاندلس
وقعود أمرائها عن حمايتها ، راجياً منه ان يوليه قيادة العساكر
الصحراوية ، ليستطيع بها جمع الولايات وضم اشتاتها ، ومن ثم
مقاومة الامراء المسيحيين . وفاته ان سلطان مراکش ينتظر هذه
الفرصة لتحقيق رغائبه في الاستيلاء على الاندلس وجعلها من
أعمال دولته .

فعاد من عنده خائباً نادماً ، لان الزعيم المرابطي يريد ان
يحمل بنفسه عبء مجاهدة الاسبانيين ، ولعله تلقى رسائل من
علماء الاندلس يستنجدونه لانقاذها ؛ فنشط يجمع العساكر
ويدربها ، حتى تهيأ له جحفل كثيف ، فعبر به بحر الزقاق
إلى الجزيرة الخضراء ، في حزيران ١٠٨٨ م ، (ربيع الاول
٤٨١ هـ) ، وما وكده الامراء المسيحيون وحدهم ، بل ملوك
الطوائف قبلهم .

على انه لم يجد من الحكمة ان يناصبهم العداء فوراً ، فباشروا
الحرب اولاً مع الاسبانيين دون ان يدعوهم إلى مساعدته ، ثم ارتد
إلى غرناطة فاحتلها واعتقل صاحبها عبدالله بن بلكين بن باديس ،
ونفاه إلى اغمات قرب مراکش ، متهماً إياه بأنه حليف لالفس .

ورأى ان الجيش المرابطي لا يكفي للقيام بحركات واسعة يزيل بها ملوك الطوائف ، فارتد إلى سبتة واخذ يحشد العساكر ويجيزها إلى قائده سير بن ابي بكر في غرناطة حتى اجتمعت له قوات جرارة ، فسيرها في اربع جهات لقتال المعتمد بن عباد ، والمعتمد ابن صمادح صاحب المرية (Almería) .

وكان المعتمد يتوقع غارة المرابطين على مملكته ، ويستعد لها ، فهب إلى مدافعتهم ، يخوض المعارك بنفسه ، ويبلي احسن البلاء . ولكن ما حيلته وجيشه ضعيف امام الفيالق الصحراوية الطاحنة ، فمن الجنون ان يقرر به ويتابع حرباً نتيجتها خاسرة . يعرف كل ذلك ، ويعرف ايضاً ان الحرب لا مهرب منها الا اذا تنازل عن عرشه ليوسف بن تاشفين . وكيف له بالتنازل عنه ، وهو به ضنين ، يفضل أن تحرق الرماح جثثانه وان يموت الجيش في مكانه على ان يخفض الرأس لابن الصحراء !

ترى بمن يستغيث ، وإلى من يفزع ؟ ايدعو ملوك الطوائف لنصرته ، وفيهم الحاسد الشامت ، من يسر بنكبته ، او الخائف المرتعش يشتغل بتحسين ارضه ولا يجرؤ ان يبادي المثلثين بالعدوان ؟ وما ابعد الامل عند ملوك الطوائف ، وما اقربه عند النفس عدوه اليوم ، وحليفه بالامس ، فلماذا لا يهرع اليه بندائه ، وهو يشعر شعوره بخطر الغزاة الغرباء ؟ وما كاد صوت الاستغاثة

يبلغ عاهل قشتالة ، حتى بادر إلى نجدة باربعين ألف راجل ،
وعشرين ألف فارس يقودهم الكونت غوميز (Gomez) ، فالتقاهم
المرابطون عند قرطبة فهزموهم بعد معركة دامية .

ولبت المعتمد يدافع عن اشبيلية دفاع اليائس المستميت ،
بإذلا آخر ما لديه من القوى ، والمرابطون يأخذونه من كل جهة
إلى ان دخلوها عنوة في ايلول سنة ١٠٩١ م (رجب ٤٨٤ هـ) ،
فاعتقلوه وساقوه وأسرته إلى اغمسات . وسقطت المرية على اثر
اشبيلية وزال عنها ملك المعتصم بن صمادح . ثم أناخ المرابطون
على مرسية (Murcia) ، وافتتحوا دانية (Dénia) وشاطبة
(Jativa) ، وما زالوا يتقدمون من مدينة إلى مدينة حتى
انتهوا إلى بلنسية ، وهي يومئذ في حكم القادر بن ذي النون .
وكان الفنس السادس قد اقطعه هذه الامارة بدلا من طليطلة التي
انتزعها منه ، وجعله تحت حمايته يتقاضاه الجزية وينود عنه إذا
أعتدي عليه .

فلما اغار المرابطون على بلنسية انضمت قوة من النصارى إلى
المسلمين تدافع معهم عنها ممتنعين بحصونها . ولكن المهاجمين
استطاعوا أن يأخذوها في غير مشقة ، لأن القاضي أبا أحمد بن
جحاف المعافري فتح لهم أبوابها ، وأمدهم بجماعة من أصحابه تسهل
لهم امتلاكها ، لطمعه في الامارة وكرهه للقادر بن ذي النون

صناعة الاسبانيين .

وكافا المرابطون القاضي فجعلوه والياً على بلنسية من قبل سلطان مراكش ، فما كان منه إلا ان يادر إلى الانتقام من القادر ، فما زال يبحث عنه ويطارده حتى تمكن منه فقتله ، ثم انتهب قصره واستولى على أمواله ، فزالت بموته دولة ذي النون (١٠٩٢ م - ٤٨٥ هـ) .

على ان سقوط بلنسية في أيدي المرابطين لا يعد خسارة للنونيين وحدهم ، بل هو خسارة لالفنس السادس أيضاً ، وبالتالي ، خسارة كبيرة للفراس الاسباني ، السيد رذريق (Rodrigue le Cid) . فقد كان ملك قشتالة يعتبر بلنسية امانة تابعة له ، ولا ينظر بارتياح إلى تقدم الافريقيين في الأواسط الشرقية من الاندلس ، حيث ينبسط نفوذه . وقد رأيناه يبادر إلى نجدة المعتمد بن عباد لكي يستوقف زحف المرابطين ، ويقضي على حركاتهم في الجنوب قبل أن تتسع وتنتشر ، فلم ينجح في مسعاته فاضطر جيشه الى التقهقر عن قرطبة مدحوراً . وراحت العساكر الصحراوية توغل في الجانب الشرقي ، ناهضة من مدينة إلى مدينة حتى استولت على اكثر القواعد الحصينة ، هازمة أمامها القوى الأندلسية واعوانها الاسبانيين ، ومن بينهم الكونت رذريق وفرسانه الأشداء .

وكان هذا الفارس لا يقل حماسة عن أميره الفنس في مقاومة
المرابطين ومصابرتهم ، ولا يقل عنه غضباً ، لسقوط الولايات
الشرقية لما له من النفوذ فيها ، ولا سيما بلنسية التي بسط عليها
سيادته وجعلها محط آماله ومدار مطامعه ، سواء أرضي مليكه
أم سخط ، فإنه من أولئك الأبطال المغارين الذين يتعشقون
الشهرة ، ولا ينكصون عن طلبها مهما يقيم دونها من الأهوال .
وقد كان الفنس ناقماً عليه حتى أنه نفاه عن قشتالة ، وأزال ما به
من نعمة سابقة .

فما زاده النفي والاضطهاد إلا عزمًا وإقدامًا . فبنى مجده
بذكائه وحد سيفه على كره من العاهل القشتالي ، وبأبت بالخبية
كل محاولة قام بها الفنس لخنذلانه وإخراج بلنسية من يده . وجدير
بنا أن نلم بطرف من حياة السيد وأخلاقه قبل أن نتحدث عن
مواقفه في بلنسية مع المرابطين ، لتنجلي للقراء تلك الشخصية
التي بلغت من سيرورة الذكر ما لم يبلغه الفنس السادس نفسه .
فقد تغنى ببطولتها الشعراء والمنشدون ، ونسجت حولها الروايات
والأساطير ، فكانت غذاءً للادب الإسباني في القرون الوسطى ،
وغذاءً من بعده للشاعر الفرنسي كورثاي في مسرحيته الخالدة
« السيد » .

هذا الفارس القشتالي يمثل فروسية عصره أصدق تمثيل

بفضائلها وعيوبها ، أوتي من القوة البدنية والشجاعة والاقدام
واستهانة بالموت ما يصح أن توسم به عصور البطولة . وساعده
ذكاؤه وقوة إرادته على التبصر في الأمور وتصريفها ، والنظر
في عواقبها .

كانت فروسيته تقترن بالتدين وحرارة الايمان ، يصوم ويصلي ،
ويعنى بالحفلات الدينية ، ويقدم الهدايا للكنائس والأديرة . فهو على
خلاف ما تصوره المستشرق دوزي ، إذ جعله لا دين له ولا
شرع . فان روح الدين كانت اكبر محرك لنفوس الفرسان في
عصره ، بسبب الحروب الصليبية التي امتدت من الغرب إلى
الشرق . ولعل دوزي نفى عنه العقيدة المسيحية لكثرة ما اقترب
من الجرائم والفظائع التي يستنكرها الدين وينهى عنها ، او لعله
يرمي إلى تقلبه في السياسة الوطنية ، فحيناً يحارب المسلمين مجاهداً ،
وحيناً يضع سيفه في خدمتهم لينصرهم على المسيحيين ، وفي كلا
الحالين لو عاد المستشرق بالسيد إلى عصره لما وجد غريباً عنه .
فاحراق القاضي بن جحاف حياً ، والتمثيل بالأسرى او القاؤهم إلى
الكلاب الضارية ، كلها أعمال وحشية بحد ذاتها ، تنفر منها النفس
الانسانية في صفائها .

إلا ان رذريق لم ينفرد بها عن غيره ، فانما هي من عيوب
فروسية العصر ، وتاريخ الاندلس حافل بأمثالها وبابشع منها ،

وتتقترن على الغالب بأحوال خاصة كدافع الانتقام ، او الحاجة إلى الارهاب . ولا يصح في ما عدا ذلك ، ان تجرد السيد من الشعور الانساني ، والعاطفة المهدبة تجريداً تاماً ، وفي أخباره ما لا يسمح لنا بهذا لحكم الجازم ، كخبره مع المرأة النفساء ، ذكره لويس برتران في كتابه « تاريخ اسبانية » وهو ان السيد ، عندما تفاه الملك سار بفرسانه وخدمه هائلاً بين قشتالة وسرقسطة . فذات يوم أمر بأن تقوض الخيام للرحيل ، فيما كادت تطوى وتحمل حتى سمع بعض رجاله يقولون ، ان زوجة طاهيه قد وضعت في تلك الساعة . فسالهم حالاً : كم تلزم سيدات قشتالة السرير عادة بعد الولادة ؟ فأعلموه . فقال : إذن نبقي هنا طول هذه المدة ، فلتنصب الخيام .

وبقي السيد في مكانه لا يتحرك منه حتى نهضت زوجة الظاهي من فراشها ، مع ان الخطر كان محدقاً به ، لانتشار الأعداء وتسربهم في تلك الأصقاع .

وكذلك تقلبه في السياسة الوطنية لم يكن غريباً في نوعه عندهم . فان تاريخ اسبانية يحدثنا عن كثير من الفرسان المسيحيين والمسلمين كانوا يفعلون فعله ، مدفوعين بحب المال والشهرة ، او شهوة الانتقام ، أو روح المغامرات ، الى محاربة أبناء ملتهم في صفوف أعدائهم ، والكونت رذريق فيه جشع كبير الى المال والشهرة

وكانت شهوة الانتقام تحفزه الى طلب المعالي ، بعدما فقد حظوته عند الفنس وأبعد عن بلده .

وهو الى ذلك لا تنقصه روح المغامرات ، واسبانية يومئذ في حالتها السياسية المضطربة ، وما يهددها من الخطر الشامل لتصارم ولاياتها ، وتباغض حكامها ، تفرض على الامراء المسلمين والمسيحيين ان يجتمعوا في مواطن مختلفة ، متحالفين مع ما بينهم من حروب ازلية وعداء قديم ، على ما في هذا التحالف من تكافؤ او غير تكافؤ ، كما حالفت بلنسية وسرقسطة قشتالة ، وكانتا في الوقت نفسه تؤديان لها الجزية ، وتعتمدان على مساعدتها اذا نزل بها عدو مغير . فغير عجيب ان يقاتل السيد في صفوف حلفاء قومه ، وان كان العدو الذي يقاتله من المسيحيين ، او ان يقاتل في غير صفوف حلفائه وهو حاقدا على اميره ، مغامر باسل يطمح الى المجد ويطمع في المال ، ولديه جيش خليط من المرتزقة ، لا يقوم على المسيحيين وحدهم ، بل فيه عدد عظيم من الفرسان المسلمين . واذا عدنا الى اخباره اول حياته نجده ، مع حبه للمال وسعيه الى جمعه لا يجرّد حسامه الا في سبيل اميره .

ولد هذا الفارس في قرية فيفار (Vivar) ، على مقربة من برغش (Burgos) نحو سنة ١٠٤٥ م ، يكتنفه النسب الكريم من ناحية أبيه دياغو او دياز (Diego ou Diaz) ، سليل كالفو

(Calvo) بعض كبار القضاة في قشتالة . ثم من ناحية امه التي تنتمي الى اسرة كبيرة في اشتوريش (Asturias) ، وكان والدها صاحب اقطاعات في الوادي الجوفي ^(١) ؛ أي وادي دويره (Duero) . والظاهر ان دياغو توفي والغلام في نحو الثالثة عشرة من سنه ، على حد تقدير لاوي بروفنسال ، اذ يجعل وفاته سنة ١٠٥٨ م ، فورث رذريق املاكه .

ثم اتصل بالدون شانجه (Sancho) بعدما قسم فردينان مملكته بين اولاده الثلاثة ، فاتيح له ان يتأدب بادب القصر شان ابنه الامراء ؛ وقلده شانجه رتبة الفروسية ، فحارب معه سنة ١٠٦٣ م مناصراً المقتدر بن هود ملك سرقسطه على الارغونيين ؛ فكانت اولى معاركه بجانب المسلمين على المسيحيين .

فلما نشب الخلاف بين الاخوة الثلاثة ؛ وقام الواحد منهم ينازع الآخر نصيبه من ملك ابيه ؛ وقعت بينهم حروب اهلية . فقاتل الفتى رذريق تحت لواء شانجه ؛ حتى تم النصر لاميره ؛ فكافاه على بلائه بمنصب رفيع في القصر ؛ واناط به قيادة الجيش ؛ وصاحبها يعرف بصاحب العلم (Alferez) ؛ ولقب بالكييادور (Campéador) اي القائد الاعلى ، او رئيس الغزوات ؛ على رأي

(١) الحوفي : اي الشمال في اصطلاح الغربيين .

لاوي بروفنسال .

ويسميه المقرري في نفح الطيب القنبطور ، ويعرف ايضاً عند مؤرخي العرب بصاحب الفحص^(١) . والمراد به الرئيس الموكل اليه امر الغارات على فحوص الاعداء ؛ وانتساف زروعها . غير ان حياته في القصر لم يكن من شأنها ان تمنحه الشهرة التي اعدتها له الاقدار مع كثرة الحروب التي شهدتها في عهد مليكه .

ثم اغتيل شانجه في حصار زمورة (Zamora) الثائرة عليه سنة ١٠٧٢ ؛ واتهم بمقتله اخوه الفنس ؛ وكان هذا قد نفاه من شانجه الى طليطلة ؛ فرجع الى مملكته لاون واعتلى عرشها ؛ واراد ان يضم اليه قشتالة نصيب اخيه المقتول ؛ فتمنع القشتاليون عن مبايعته او يقسم على براءته من دم اخيه . فرضي الفنس ؛ وذهب في جماعة من اشراف قشتالة الى كنيسة سانتا غادية (Gadia) في برغش لتأدية اليمين ؛ فلم يجرؤ احد منهم على تحليفه سوى الكونت رذريق ؛ فحقد عليه ؛ ولكنه كان يتقي جانبه لما يعلم من بطشه ودهائه . فآثر ان يأخذه باللين على ان يجاهره العداء ؛ وان تكن

(١) الفحص : بالمغرب من ارض الاندلس مواضع عدة تسمى الفحص . قال ياقوت : « سألت بعض اهل الاندلس ما تعنون به ؟ فقال : كل موضع يسكن سبلاً كان او جبلاً بشرط ان يزرع نسميه فحصاً ، ثم صار علماً لعدة مواضع . اما في لغة العرب ، فالقحص شدة الطلب خلال كل شيء . »

هذه الظواهر لا يتخدع الفارس الذكي ؛ فتزِيل من نفسه الريسة
بعاهله الجديد . فقد رأى خيراً له أن يتخلّى عن منصبه في الجيش
ويترك القصر دون أن يخرج عن طاعة الفرس ؛ أو يقطع صلة
التابع بالمتبوع .

وكان لالفرس ابنة عم يقال لها الدونا ليانا دياز ؛ وتعرف بشيانة .
وهي بنت دياغو بن رذريق كونت اوفيا دو ؛ وحفيدة الفرس
الخامس ملك لاون . فشاء أن يزوجه برذريق ليجمع بها أشراف
لاون وقشتالة ؛ ويزيل ما بين البلدين من العداة .

فقبل الفارس القشتالي عروسه اللاونية من يد مليكه بعامل
السياسة ؛ لا بدافع الحب الذي يصوره كورناي في مسرحيته ؛
ويجعل منه صراعاً عنيفاً بين العاطفة والواجب في نفس البطّل
العاشق . ثم في نفس معشوقته . فوالد شيانة لم يلطم والد السيد .
وهذا لقي حتفه من عهد بعيد . ولا رذريق اضطر الى قتل
والد شيانة . وإنما تم الزواج بينهما في جو هادئ . لا تلوح
فيه بارقة وجد . ولا عاصفة التياح . وهذا لا يمنع أن يكون
الزوجان تبادلًا المودة والاخلاص مع طول الالفة . كما
يحصل عادة بين الرجل والمرأة . اذا اقترنا وقلباها خليان من
حب أو كره .

غير أن هذا الزواج لم يُعد الى رذريق سابق حظوته في

القصر ، فما لبث ان رجع وشيئة إلى قريته ييغار لا يخرج منها إلا إذا دعاه اميره لبعض المهات .

وكان الفنس يوفد كل سنة بعثة الى طليطلة وأشبيلية لاستئداء الجزية من الدولتين الاسلاميتين ، فأوفد السيد الى اشبيلية في اواخر سنة ١٠٧٩ م ليأخذ الجزية من صاحبها المعتمد بن عباد ، فلما بلغها رأى الحرب دائرة بينهما وبين الغرناطيين . وعلى غرناطة يومئذ الأمير عبدالله بن باديس بن زيري ، وقد أمده الفنس بنجدة من الفرسان الاسبانيين تنصره على المعتمد ، لأنه لم يكن مطمئن النفس اليه لانبساط ملكه بين ملوك الطوائف ، وطمعه في التوسع ؟ وكان قائد الحملة الاسبانية الكونت غرسيه اوردونه ، عدو رذريق ومنافسه ، فتحاض السيد المعركة بجانب الاشبيليين محتجاً بانهم حلفاء مليكه الفنس .

فهزم العساكر الغرناطية ، وأسر جماعة من الاشراف المسيحيين بيتهم غرسيه ، ولم يطلق سراحهم إلا بعد ثلاثة أيام فقفلوا إلى بلادهم مذلولين منكسي الرؤوس ، وتقاضى رذريق الجزية من ابن عباد ، وحملها الى قشتالة سنة ١٠٨٠ م .

فغير عجيب ان يكون له من غرسيه واعوانه خصوم يناصبونه العدا ، ويكيدونه في السر والعلانية حتى اوغروا صدر الفنس عليه ، فبات يتحين القرص للثيل منه ، واضعاف شأنه . فاتفق أن

أغار السيد على طليطلة دون استئذان سيده ، فأنخن وأوجع ، وعاد بالأسرى والغنائم ، فثار ثائر الأشراف القشتاليين لاستقلاله بالأمر ، وصغى اليهم الفنس ، وبدا له أن يطرده من أراضي قشتالة ، ففتحت له أبواب المجد في منفاه .

ولم يسلم سبب طرده من الالتباس والخلاف فيه ، فمنهم من يرجعه إلى حقد الملك عليه من أجل اليمين التي لقنه اياها في كنيسة برغش ، ومنهم من يعود به الى غاراته على طليطلة وإيقاعه بحلفاء عاهله ، أو الى طمعه في الثروة ، وانه أخذ مالا كثيراً من المعتمد ابن عباد . ويتفق لويس برتران والمستشرق الالماني جوزف اشباخ على القول بان فارساً ممتازاً عظيم الكبرياء كثير المطامع مثل السيد لا يرضى ان يظل مغموراً في كنف ملك يبغسه حقه ويفار منه . فهو لا بد أن يختار هذا النفي بنفسه ، ويقصد اليه قصداً لم يفرض عليه ، ليسعى وراء الشهرة التي يتعشقها ، ويبني عليها قصور أحلامه .

ومهما يكن من شيء ، فإن رذريق هجر موطنه نحو سنة ١٠٨١ م ، مبقياً زوجه وأولاده في بيفار ، وسار برجاله إلى برشلونة ، عارضاً سيفه على أميرها رامون بيرنغر الثاني (Berenguer) فلم يجد عنده قبولا ، فتركه وولى وجهه شطر سرقسطه ، فاتصل بصاحبها المقتدر بن هود ، وكان حليفاً للفرنس

فأحسن وفادته .

وتوفي المقتدر في السنة نفسها ، فانتقل الحكم من بعده الى ولديه المؤتمن والمنذر ، فولى الأول سرقسطة وأعمالها ، والثاني دانية وطرطوشة (Tortosa) ولاردة (Lérída) ، ثم نشب الخلاف بينهما ، فاستنجد المنذر كونت برشلونة وملك أرغون مستنصراً بهما على أخيه فامداه بالعساكر . فخرج اليهم رذريق بفرسانه وفرسان المؤتمن فاشتبك واياهم في معارك دامية كتب له النصر فيها ، فانهزموا أمامه ، فطاردهم واناخ على بلادهم فدمر واتلف ونشر الروع بين المسيحيين والمسلمين . ويروى انه أسر يومذاك بيرنغر كونت برشلونة ، وكان هذا قد نذر دمه ، فأبى الا ان يقابله بالاحسان ، معاملة الفارس الشريف لصنوه ، فأطلق سراحه دون أن يطلب منه الفداء . ثم رجع الى سرقسطة تظلمه رايات المجد والظفر فاستقبلته المدينة هاتفة له ، وأنزله المؤتمن منزل الكرامة ، وصار المسلمون حلفاءؤه يلقبونه بالسيد من ذلك الحين . غير ان لاوي بروفنسال يقول ان لقب السيد ليس له ذكر في الروايات المسيحية القديمة ولا في الروايات العربية ، وانما يذكر لقب القنبطور . وفي ذلك ما فيه الشبهة كما لا يخفى .

ولم يطل حكم المؤتمن فانه توفي سنة ١٠٨٥ م فخلفه ابنه

المستعين مترسماً خطة ابيه في إكرام السيد والاعتماد على سيفه وخبرته ، الا ان الفارس القشتالي لم يهجر بلاده ليكون تابعاً لأمير غير أميره بل ليحقق أحلامه ، واي أحلام تراوده سوى الامارة والسلطان ؟ فرمى بعينيه إلى الولايات المجاورة يتفحصها فوجد بلنسية أقربها منالاً وأحكمها موقعاً . فالقادر بن ذي النون ضعيف لا قبل له بالدفاع عنها ، فانقض عليها بفرسانه فافتتحها ، والظاهر انه كان على اتفاق مع المستعين ، ولم يشأ ان يخلع القادر بل استبقاه مراعاة للمسلمين ، ووضعه تحت حمايته .

وأرسل في الوقت نفسه إلى الفنس السادس يبليعه على الطاعة ، لئلا يثير حفيظته ، وبلنسية معدودة في جملة الامارات الخاضعة لمملكته .

ومن الطبيعي أن لا يرتاح الفنس إلى عمل السيد واستبداده بامارة حليفه وتابعه ، وهو ناظم على هذا الفارس الطريد فكيف يأمن جانبه اذا قويت شوكته في بلنسية وما جاورها ؟ وقد كان حقيقاً به ان يرميه بحملة تأديبية تنزع بلنسية من يده ، وتحرر القادر من سلطانه ، الا ان الأحداث الخطيرة التي طرأت على الأندلس اضطرتته الى التغاضي عنه ، ذلك ان المرابطين أخذوا يتقدمون في الولايات الجنوبية والشرقية ناثرين تيجان ملوك الطوائف ، مغيرين على الأراضى الاسبانية . فالخطر الداهم

أعظم من أن يحمل الملك القشتالي على التفكير في محاربة السيد ومعاقبته ، وقد تكون الاستفادة من سيفه في مثل هذه الأحوال أولى وأنفع .

ولم يخطيء الفنس في حدسه ونظره الى الأمور ، فان السيد نفسه كان يشعر شعور مليكه ، وتساوره المخاوف من زحف المرابطين وانتصاراتهم الصاعقة ، فإذا بهذا الشريد المغامر يصبح بطلا قوميا لا هم له الا ان يرد الأعداء الغرباء عن بلاده ويحول دون تجدد النكبات التي شهدتها اسبانيا المسيحية في أوائل الفتح . ومن هنا تبتدىء حياته الوطنية اللامعة تتغنى بذكرها وتخلدها القصائد والأناشيد .

دخل المرابطون بلنسية ، والسيد غائب عنها ، فارتد اليها عندما بلغه الخبر ، وهو مصمم على استرجاعها ، مهما كلفه خطبها ، ليجعل منها قلعة حصينة في وجه الملتزمين تمنعهم من التوغل في الولايات الاسبانية ، فنشط الى تحصين القلاع الجبلية المحيطة بها وتعزيز حامياتها .

ودعا الى محالفته الأمراء المسلمين في السهلة وشاطبة ودانية ومريبطر (Murviedro) فلبوا الدعوة لما يضمرون من الكره للمرابطين . ثم ضرب الحصار على المدينة بجيش لهام من النصارى والمسلمين ، قصرت بلنسية عليه مدة طويلة تقاوم الجوع يائسة ،

لأن المرابطين الذين جاؤوا لنجدتها هزموا وشتت شملهم . فثار الشعب أخيراً على القاضي جعفر بن جحّاف حاكمها الجديد وأجبروه على التسليم ، فلم يجد مناصاً من مفاوضة رذريق على شروط تضمن السلامة له ولأسرته ولسكان المدينة أجمع . فقبل السيد هذه الشروط ، وفتحت له بكنيسة أبوابها في أيار سنة ١٠٩٤ م ، فدخلها دون أن يتعرض لأحد باذى . وخطب فيهم فقال :

« جعلت لكم يومي الاثنين والخميس مواعدين لسماع مطالبكم . فمن كان له حاجة معجلة ، فبوسعه أن يدخل عليّ متى شاء ، فاسمع له ، لأنني لن أحتجب عنكم كما كان يحتجب ساداتكم مع النساء للشراب والسماع . وأنا أقضي بنفسي في أموركم ، فأكون لكم حامياً وصديقاً ، وقاضياً ووزيراً . وإذا شكّا إلى أحدكم الآخر ، حكمت بالعدل بين الخصمين . »

ويقول ابن بسام ان القنبطور ترك ابن جحاف على القضاء نحواً من عام ، ثم اعتقله وأهل بيته وقرابته ، وجعل يطالبهم بذخيرة القادر بن ذي النون ، فانكر القاضي ان يكون لديه شيء منها ، فهدده السيد بالقتل ان كان كاذباً ، وهو يعلم انه قد استولى عليها بعد مقتل القادر ، وفي جملتها عقد زبيدة « حمة العقرب » وكان من الزمرد والماس والياقوت ، قيل انه كان لزبيدة زوج هارون

الرشيد ، فنهب يوم مقتل الأمين ، وانتقل إلى الخليفة الأموي في الأندلس عبد الرحمن الثاني .

ثم صار بعد سقوط الدولة الأموية في قرطبة إلى الدولة النونية ، فحملة القادر من طليطلة إلى بلنسية ، فلما قتل استحوذ عليه القاضي ابن جحاف ، ثم امتلكه السيد ، وبقي في حوزته حتى مات ، فاخذته شيانة معها إلى قشتالة . ويقول ميناندز بيدال ان عقد حمة العقرب كان بخزانة قشتالة في القرن الخامس عشر ، فآثر شهوة الشريف الفارو اولينا ، فعدا عليه . وعثر الملك جوان الثاني على هذه الحلية سنة ١٤٥٣ م تحت عمود من أعمدة القصر الملكي في مدريد ثم ضاع أثرها ، فلم يسمع بذكرها بعد هذا التاريخ .

وقيل ان ابن جحاف عرض على السيد هدية من ذخائره ، فردها عليه ، ولم يأخذها منه . فأوجس القاضي شراً . ثم أمره أن يبين في كتاب ما لديه من المال والحلى والجواهر ، وان لا يخفي شيئاً عنه . فوعده بذلك ، ولكنه أخلف الوعد ، وأبقى الذخيرة مطمورة في الأرض . ويقول المقري صاحب نفح الطيب : « فاتفق انها وجدت عند القاضي ، فأمر به فأحرق حياً . »

على ان الذخيرة لم تكن السبب الوحيد الذي حمل رذريق على قتل أبي أحمد بن جحاف ، فهناك أسباب أخرى جعلته يحقد عليه ، ويرصد له الشر ، منها اغتياله لتابعه القادر بن ذي النون ، وإقفاله

المدينة في وجهه ، وحجزه عنه ما أودع من الخنطة فيها ، واستنجاهه المرابطين عليه ، وتلونه في المفاوضات حيناً معه ، وحيناً معهم ، حتى أدى الأمر إلى حصار طويل ، أخره عن دخول بلنسية ، وأضر بسكانها ضرراً بليغاً ، لما أصابهم من الجوع الغاشم حتى أكلوا جلود الحيوانات .

ويقول ابن بسام ان رذريق كان قد هم باحراق زوجة ابن جحاف وبنيه معه ، فضج المسلمون والمسيحيون معاً ، ورغبوا في ترك الأطفال والعيال ، فاجاب رذريق سؤلهم بعد جهد شديد . وأضرمت نار عظيمة في ساحة بلنسية كانت تملح الوجوه على مسافة بعيدة ، وجيء بالقاضي ابي أحمد يرسف في قيوده ، وقد احتفر له حفرة ، فأدخل فيها إلى حجزته ، أي وسطه ومعقد ازاره ، وسوي التراب حوله ، وضمت النار نحوه . فلما دنت منه ولفحت وجهه قال : بسم الله الرحمن الرحيم ! وقبض على أقباسها ، وضمها إلى جسده ، ليقصر مدة عذابه .

ثم اختار رذريق لبون بن عبد العزيز والياً من قبله على بلنسية ليستأنس به المسلمون . وأقام هو في قصر القادر يعنى باصلاح إمارته وتدير شؤونها ، منصرفاً اليها بكل قواه . قال فيه أحد المؤرخين انه أحبها كعشيقة له . ومع ذلك لم يفضل عن امرأته وأولاده ، فاستقدمهم من بيفار . ولبت نحو خمس

سنوات يقاوم المرابطين ، ويمنع تقدمهم في إمارته ، فما ينالون منها منالاً ، ولا يستطيعون الايغال في الولايات الاسبانية ، حتى أصابته الحمى وثقلت عليه الجراح القديمة . وبلغه ، وهو على هذه الحال ، مقتلُ ولده دياغو في جيش الفنس ، وانهزام فرسانه أمام ابن عائشة قائد المرابطين في سنة ١٠٩٧ ، فأله الخطب ، واشتد عليه المرض ، حتى نهك قواه ، واودى بجيسته في تموز سنة ١٠٩٩ .

وكانت الجيوش الصحراوية لا تنفك تهاجم المدينة ، فابت الأميرة شيانة أن تتخلى عن تراث بعلمها ، فظلت تدافع المرابطين زهاء ثلاث سنوات ، وقائدهم مزدلي يشد الخناق على بلنسية . فلما ضاق ذرعها بعثت اسقف المدينة جيروم ذي يبروغورد تستنجد بابن عمها الفنس ، فخف اليها ملبياً . ورفع المرابطون الحصار عن بلنسية عندما عرفوا بمجيئه . فدخلها دون أن يلقي مقاومة . ولكنه وجد ان الدفاع عنها يرهق جيشه على غير جدوى ، فلم يشأ ان يبقيه فيها عرضة لهجمات المثلثين .

فامر شيانة بالجلء عنها ، فاطاعت مكرهه ، وعادت برجالها مع الجيش إلى قشتالة ، حاملة رفات زوجها رذريق (أيار سنة ١١٠٢ م) ، بعدما انتهبت بلنسية وأحرقت ، فدخلها مزدلي ، وهي على تلك الحال .

وبموت السيد تطوى صفحة جليلة من تاريخ الأندلس العربية ،
فان ولاياتها أصبحت خاضعة لمراكش ، تابعة ليوسف بن تاشفين
الزعيم المرابطي ، بعد نضال طويل اشترك فيه امراؤها وامراء
اسبانية المسيحية ، ليطردوا الغريب من بلادهم ، فلم يستطيعوا إلى
ذلك سبيلا .

يوم سرقسطة

ما كان طبيعياً ان تظل سرقسطة امانة اسلامية مع تطرفها في الشمال الشرقي على نهر ابره (Ebre) ، وقد سقطت قبلها طليطلة في أيدي الاسبانيين ، فجعلت نهر التاج فاصلاً بينها وبين الولايات الاندلسية المسلمة ، حتى اصبحت في شبه عزلة عن ابناء جلدتها ، تستنجد في ضنكها ملوك الطوائف وتستنفر امير المرابطين .

وقد أخذها الفنس السادس بالحصار أخذاً شديداً ، فما رده عنها إلا نبا جاءه عن يوسف بن تاشفين وأمرأء الأندلس بانهم زاحفون اليه في جموع جرارة ، فبادر نحوهم قبل أن يبلغوا طليطلة ، والتقاهم في بطليوس ، حيث دارت عليه معركة الزلاقة بشؤم الطالع (١٠٨٩ م) ، فانكفا منهزماً الى عاصمته في فلول من جيشه المكسور ، فاستطاعت سرقسطة عندئذ ان تتنفس الصعداء ،

وتستعيد سلطانها على الولايات التي انتزعت من يدها ، ولم يكن لها قِبَلٌ بالدفاع عنها .

ولكن لم يطل الأمر حتى ساورها خطر جديد من ناحية ارغون لا يقل هولاً عن الخطر الأول ، فان أميرها شانجه ابن رذمير (Sancho Ramiro) ، اغار من جبال البرنات (Pyrénées) بعشرين ألف مقاتل على نهر ابره ، فتصدى له المستعين بن هود ، صاحب سرقسطة يدافعه بظاهر وشقة (Huesca) ، وقيل ان السيد رذريق الفارس القشتالي حارب مع المسلمين في هذه الموقعة ، وكان يومئذ ضيف المستعين بعد ان نفاه الفنس السادس من قشتالة .

إلا ان النصر حالف الارغونيين فانهمزم أمير سرقسطة في جيشه ودخل وشقة محتمياً بقلعتها الحصينة ، فضرب المسيحيون حولها آلات الحصار ، وشدوا عليها الخناق ليكرهوها على الاستسلام ، فصبرت بأسلة ، ودافعت انبل دفاع لقي منه الارغونيون ضيماً وخسراناً ، وأصيب فيه شانجه بسهم قاتل أودى بحياته (١٠٩٣ م) . ومع ذلك فالحصار ما برح على شدته وضغطه ، وتمكن الغزاة في الوقت نفسه من افتتاح مدينة افراغة (Fraga) والتغلب عليها ، فلم يبق من سبيل للمستعين إلا ان يفرع الى حليف يناصره ، وينفس الكرب عنه . فرأى ان يحالف عدوه الفنس

السادس لما يعلم من تفسخ الأمراء المسيحيين ، ثم من استياء صاحب قشتالة لتوسع مملكة ارغون .

وقد تعودت سرقسطة لتطرف إمارتها ان تؤدي الجزية للوك قشتالة ، وتحالفهم على الأعداء الذين يهددونهم من قطلونية وارغون والبشكنس (Basque) ، فقد رأينا السيد رذريق يلجأ اليها ، لأن أميرها أبا جعفر المقتدر ، ومن بعده ابنه المؤمن والد المستعين كانا حليفين لفردينان الأول ، ثم لولده الفنس السادس ، فغير عجيب أن يحذو الابن حذو أبيه وجده فيحتمي بعاقل قشتالة في الملم العصب .

وكان الفنس قد استأنف أهبطه ونشاطه بعد كارثة الزلافة ، فخرج سنة ١٠٨٧ يثخن في الولايات الأندلسية ، مستنزلاً أمراءها عن قواعدهم وحصونهم . فعاد هؤلاء إلى استصراخ يوسف بن تاشفين ، فعبر اليهم سنة ١٠٨٨ م ينثر التيجان عن رؤوسهم ، ويبسط يده على إماراتهم . وافتتحت جيوشه بلنسية سنة ١٠٩٢ م فازالت عنها كلمة النونيين ، وهي تحت حاية السيد رذريق يومئذ ، تابعة للمملكة قشتالة ، وقد رأينا الفارس الاسباني يخف لانقاذها برجاله وحلفائه المسلمين ، حتى استردها سنة ١٠٩٤ م . لذلك لا يصح قبول الرواية التي تزعم انه حارب ملك أرغون سنة ١٠٩٣ م منتصراً لليهوديين ، لأنه كان منصرفاً في تلك السنة إلى تحصين

القلاع الجبلية المحيطة ببلنسية ، ثم إلى السعي لمخالفة الأمراء المسلمين في السهلة وشاطبة ودانية ومريبطر .

وكما كان السيد مهتماً بصد المرابطين عن الولايات الشمالية خشاة ان يدخلوا اسبانية ، فكذلك كان هم الفنس السادس ، فقد أزعجه توغلهم في الأنحاء الجنوبية والشرقية ، واستيلاءهم على بلنسية ، فنشط إلى حشد الجيوش ليدفعهم عن بلادهم إذا حاولوا الغارة على طليطلة . فلماذا لم يكن بوسعه أن يجيب نداء المستعين عندما استغاثه ملتمساً حمايته ، واعدأ بتأدية الجزية على ان يمهده بجيش يرد الارغونيين عن وشقة ، وقد بلغ منها الحصار أشده . فلما رأى المستعين ان الفنس عاجز عن مساعدته لاشتغاله بدفع الخطر الصحراوي عن مملكته أيقن ان لا فائدة من محالفتة ، فنقض المعاهدة ، وولى وجهه شطر المرابطين ، مع علمه بما يجر تدخلهم من الخطر على امارته ، ولكنهم على علائهم أبناء ملته . ولعله تمثل بقول المعتمد بن عباد : « رعي' الابل خير من رعي الخنازير . »

فأوفد ابنه عماد الدولة الى يوسف بن تاشفين في مراکش ، ومعه الهدايا النفيسة ، يخطب وده ويستعينه على الأرغونيين ، فلم يتلکأ أمير المسلمين عن محالفتة ، وهو يعلم موقع سرقسطة ، وما يرجى من فائدته في مهاجمة الأمراء المسيحيين لقربها من

ممالكهم .

ثم انه كان يؤثر ان تظل هذه الدولة المسلمة شجاً في حلق الاسبانيين . فبادر الى انجاد وشقة بستة آلاف راجل والـ فارس ، واعدأ بمتابعة الامداد . وكتب الى أمراء دانية وشاطبيه والسهلة ، يهددهم ويدعوهم الى نصره المستعين ، وطرده الارغونيين عن وشقة .

وكان عرش ارغون قد صار بعد وفاة شانجه الى الدون بدرو ولده الأكبر ، فتولى بنفسه قيادة الجيش ، ملتزماً حصار القلعة ، حتى اذا بلغه زحف المرابطين ومن انضم اليهم من العساكر الاندلسية رفع الحصار عن وشقة وخف الى لقائهم في الكرازة ، فزق جموعهم ثم ارتد الى وشقة ، فما انفك يحاصرها حتى سقطت في يده سنة ١٠٩٦ م ، فجعلها قاعدة للملكه .

ويقول المستشرق الالماني جوزف اشباخ ان الحروب الاسبانية بين المسلمين والنصارى اتخذت في ذلك العهد شكلاً صليبياً منظماً لأن الكرسي الرسولي منع امراء اسبانية من الذهاب الى الشرق للمساهمة في انتقاذ الأراضي المقدسة اسوة بغيرهم من الأمراء المسيحيين ، مخافة ان تنتقص قواهم ، فيعجزوا عن القيام بقسطهم من الحرب الدينية في الغرب ، خصوصاً بعدما اوغلت جيوش المرابطين في ولايات الأندلس ، وبات خطرها يهدق بالممالك المسيحية

في اسبانية ، إن لم يكن بالملك الغربية جمعاء . فهب الأمراء
الاسبانيون من كل جانب يدافعون العدو المغير على ثغورهم ،
فاتسعت دوائر القتال ، وتعددت جبهات المعارك ، ففي كل ناحية
تزهر أرواح ، وتغلي دماء .

وكان ملك أرغون قد أطمعه سقوط وشقة فراح يوالي الغارة
اثر الغارة ووكده سرقسطة دون سواها . بيد انها امتنعت عليه
متمردة ، فردته خائباً يائساً سنة ١١٠١ م . ثم ان المرابطين استردوا
بلنسية سنة ١١٠٢ م بعد موت السيد رذريق ، فاصبحوا مسيطرين
على القسم الشرقي من البحر والبر ، يهون عليهم أن يتداركوا
سرقسطة ويدروا الخطر عنها . ثم رأوا ان وجودهم فيها أجدى
نفعاً لهم اذا أرادوا الغارة على قطلونية وارغون فدخلوها على كره
من المستعين سنة ١١٠٧ م ، فنشبت بينهم وبين الارغونيين معارك
متتابة . وكان يوسف بن تاشفين قد توفي سنة ١١٠٦ م وصارت
الامارة بعده الى ابنه علي ، فحشد جيشاً عظيماً سنة ١١٠٨ م عاقداً
لواءه لأخيه تيم .

فزحف الأمير المرابطي الى قشتالة يثخن فيها ، فاعترضته قلعة
اقليش (Uclés) تستوقفه بحصونها المنيعة ، فأناخ عليها يحاصرها
ويساور أطامها ، فأصابها منه ضيق شديد . وكان الفنس السادس
قد بلغ من كبر السن ما أقعده عن خوض المعارك ، فاشفق على

قلعته أن تستخذي للاعداء ، فتفتح لهم الطريق ، فيتوغلوا في أرضه ، فأمر بان ترسل اليها نجدة قوية تنفس الكرب عنها ، ولو يستطيع لقاد هذه الحملة بنفسه ، وهو يعلم ما لوجوده من التأثير في إذكاء حمية رجاله .

فخيّل اليه ان يملا هذا الفراغ بارسال وحيد شانجه وعمره يومئذ احدى عشرة سنة ، أو خمس عشرة سنة ، على رأي لاوي بروفنسال ، فسار الفلام مع الجيش يصحبه مؤدبه الكونت غرسيه ، حتى بلغوا اقليش ، فالتحموا والمرابطين في معركة الوطاة ، عادت عليهم بالخسار والخذلان ، فقتل شانجه ومؤدبه ، وعشرون ألفاً فيهم سبعة من قوامس (Comtes) قشتالة .

لا نحاول ان نحيط ما أصاب الفنس من الحزن الأليم عندما انتهى اليه نبا اقليش . فحسبنا أن تتصور هذا الملك الشيخ يمر وراءه اجماد ثلاث واربعين سنة استوى فيها على العرش ، فاذا هو يمني آخر حياته بكارثة لم تقتصر على انكسار جيشه ، واستسلام قلعته ، بل جاوزت ذلك الى الفجيعة بابنه الوحيد ، بقية أمله ، ووارث عرشه .

وتقول الرواية الاسبانية ان شانجه لم يكن ولداً شرعياً ،

فقد رزقه الفنس من حظيته ابنه المعتمد بن عباد^(١) ، وكان يحبه كثيراً لما بدا من نجابته على حداثة السن ، فخالف فيه القانون المرعي وجعله ولي عهده ، ومحط رجائه . فماذا يكون مصير تلك المملكة العظيمة إذا تركها ولا وارث من صلبه يجمع اجزاءها ، وهو لا يأمل أن يرزق ولداً بعد أن بلغ من العمر عتياً ؟

وقعت هذه الهموم ثقيلة على عاتق الشيخ الفاني ، فكاد يهوي تحتها لولا بقية حزم لم تتل منها عادات السنين . فرأى ان لا سبيل الى بقاء العرش في سلالة الا بنقل ولاية العهد الى ابنته اوراكا . وكانت فتاة ذكية كثيرة المطامع ، تزوجت في العاشرة من عمرها بالكونت ريمون البورغوني . ثم توفي بعلمها بعدما رزقت منه غلاماً سمته الفنس باسم ابيها . غير ان الملك الشيخ خشي الا تستطيع ابنته حماية المملكة وحدها ، فأثر أن يزوجها ملكاً قوياً من أنسابه ، فوقع اختياره على ملك ارغون حفيد عمه راميرو .

وكان بدرو قد توفي سنة ١١٠٥ م وخلفه أخوه الفنس الأول ، ذاك الذي لقب بالمحارب ، لبسالته وغاراته المتلاحقة على ثغور المسلمين . ولم يغب عن والد اوراكا ما يتعلق بهذا الزواج من الخير لاسبانية ، اذ تصبح مملكة قشتالة ولاون وجليقية واشتوريش

(١) هي كنة المعتمد لا ابنته . راجع موقعة بلنسية والسيد .

ومملكة ارغون والبشكنس دولة واحدة . فدعا مجلس النواب (Cortés) فانعقد في لاون حيث اجتمع الأساقفة والقوامس وحكام الولايات ورجال الدين والأشراف والفرسان وممثلو الطبقة الوسطى ، فقررُوا أن تكون أوراكا وارثة مملكة قشتالة ولاون واشتوريش ، وان تزوج بالfnس الأول ملك ارغون ، حتى اذا لم ترزق منه ولدأ عادت الملكة باجمعها الى ابنها fnس البورغوني ، واعطي هذا عرش جليقية على ان يكون تابعاً لقشتالة .

وتوفي fnس السادس سنة ١١٠٩ م بعد ان اطمأنت نفسه الى نظام ولاية العهد ، وأمن على عرشه من الانهيار ، وما خطر له ان زواج ابنته بنسييها ملك أرغون سيدفع البلاد الى فتنة حمراء . ذلك ان كلا الزوجين رضي الآخر بدافع المنفعة الشخصية لا بدافع الحب المتبادل ، وان كليهما كان يريد أن يستأثر بالسلطة دون رفيقه ، وفي نفسه من الطيماح والصلابة ما يابى عليه أن يلين أو يتنازل عن شيء من حقوقه ، حتى بلغ التنازع بينهما الى النفور فالتباغض ، ثم الى مجاهرة الخلاف والقطيعة . فطلبت اوراكا الطلاق متذرعة بموانع القربى ، وراحت في الوقت نفسه تبسط يدها للعشاق مستنصرة بهم ، مثيرة غيرة بعلها لتحمله على قبول الطلاق .

واشتهرت روايتها الغرامية فباتت سمرأ للناس ، ولاسيا صلتها

بالكونت غومز . وكان الفنس يتالم في كبريائه من سلوك زوجته ويزداد سخطاً عليها . غير انه رأى من الحكمة أن يرفض تطليقها حفاظاً على حقوقه في مملكة قشتالة ، وان يعمد الى تدبير جازم يضع حداً لنفوذها وتهتكها . فأمر باعتقالها بعد ان جعل حصون طليطلة في حراسة جنوده الارغونيين .

الا انها تمكنت من الفرار وأخذت تدس لزوجها وتؤلب عليه الأنصار من قشتالة ولاون واشتوريش ، فنشبت في اسبانية حروب اهلية أدمتها عدة سنوات ، وخاض غمارها الفنس بن اورا كما منازعاً امه من جهة والفينس المحارب من جهة اخرى ... على انها كانت تتوقف حيناً بعد آخر ليردوا غزاة المرابطين عن بلادهم او ليغيروا على ثغور الأندلس .

ولبثت اسبانية قلقة لا تستقر على حال ، حتى يؤس الفنس المحارب من خضوع قشتالة ، فسكت عن المطالبة بحقوقه مكتفياً بلقب قيصر اسبانية ، أسوة بالفينس السادس . وكان الحبر الأعظم قد أقر فسخ الزواج بمانع القرابة ، فانفصلت اورا كما عن زوجها انفصلاً شرعياً . ثم أزال بسلطانه الروحي خلاف الأم وولدها على ان يملكا معاً ، فتم الصلح بينها في اجتماع عقد سنة ١١٢٤ .

وكان ملك ارغون ، مع اشتغاله بالفتنة الاهلية لا يفتر عن

بجاهدة المرابطين ، ومنعهم من الايفال في بلاده . فقد أغار على ابن يوسف بن تاشفين على ولاية طليطلة ، فاستولى على طائفة من حصونها ، وافتتح مجريط (مدريد) ، ووادي الحجارة (Guadalajara) وسواها ، ثم عاد الى مراكش وبقي قائده مزدلي يتابع بعده الغارات .

وحدثت عدة مواقع في جهات مختلفة من الولايات الاسبانية رافق النصر في اكثرها المرابطين فافتتحوا عدداً من المدن والقلاع واثلفوا الحقول والمزارع ، فاصيبت البلاد من جراء ذلك بقحط شديد ونالها من العناء ما أضيف الى ما تعانيه من حربها الداخلية التي انتفعت بها جيوش ابن تاشفين . وبقينا لو ان المرابطين واهل الأندلس على وفاق خالص لكانت الفرصة يومئذ اسنح ما يرجى لاكتساح العدو والقضاء عليه . ولكن أمراء الأندلس كانوا ناقلين على الدولة الافريقية لاستطالتها على ولاياتهم ، واغتصاها السلطة من أيديهم ، فلم يولوها المعونة الصادقة ، بل ربما وجدت فيهم من يمالئ الاعداء ، فان أمير سرقسطة عبد الملك بن هود ساءه ان يصبح المرابطون سادة في عاصمته يعود الامر اليهم ، وهو ليس له أمر . فانتفض عليهم غير ناظر في نتيجة عمله .

كان شجاعاً كأييه المستعين ، ولم يكن كأييه ذكاء وفطنة ، فخرج من سرقسطة برجاله وأهله ، فقصد الى حصن روضة

(Roda) فامتنع به . ولو اكتفى بعمله هذا لكان الخطب ، ولكن مقتته للمرابطين ضرب على عينيه غشاء من الغفلة فتورط في عقد محالفة مع الفنس المحارب ، ناسياً ان حليفه الجديد يطمع من زمن في امتلاك سرقسطة ، ليزيل عقبة كأداء تواجه مملكته ، وتحول بينه وبين حرية الملاحة في نهر ابره . وما كان ينبغي له أن ينسى ، والعهد قريب ، مهاجمة الأرغونيين لعاصمته غير مرة ، وارتدادهم عنها خاسرين ، أمام مزدي قائد المرابطين ، بل ما كان ينبغي أن ينسى مقتل أبيه المستعين وهو يدافع عن حصن تطيلة (Tudela) سنة ١١١٠ ليمنع ملك أرغون من التقدم إلى سرقسطة .

فلما تمت المعاهدة بين الأميرين زحفت جيوشهما متحدة الى المدينة فحاصرتها حصاراً شديداً ، واکرھت المرابطين على الخروج منها فتركوها سنة ١١١٧ م (٥١١ هـ) بعدما حاولوا استردادها تكراراً دون جدوى ، حتى تمزق جيشهم في المعركة الأخيرة التي اصطلت ناراها الأمير تميم .

وهنا تختم مأساة سرقسطة ، فان الفنس المحارب بعد ان بات بآمن من خطر المرابطين عاوده الطمع في الاستيلاء على تلك القاعدة الحيوية لمملكته . فطلب إلى حليفه ان يتنازل له عنها ، فكان جواب عبد الملك رفضاً ألياً ، واستعداداً للدفاع .

على ان ملك أرغون لم يكن يتوقع غير هذا الجواب ، فجاءه وهو على تعبئة لمهاجمة المدينة ، فباغتها بجيشه قبل ان تاخذ أهبثها للقاء ، فنصب عليها آلات الحصار ، وواثبها بقسوة عاتية ، فقابلته بمثل شدته ، وصبرت للحصار صبراً شريفاً ، يتفق المؤرخون على التنويه بذكوره ، مع انها لا تأمل نجدة تأتيها فتفرج الضيق عنها ، وليس لديها من المؤونة ما يكفيها لحصار طويل ، حتى إذا نشب الجوع يهددها وآضت المقاومة إلى ضرب من الجنون فالانتحار ، اضطر عبد الملك إلى طلب الصلح والتخلي عن عاصمته ، وهو في يقظة من الألم المرير لغفلته الحقاء .

فعاهده الفنس ان يضمن لأهل المدينة الأمان على النفوس والأموال ، وان يترك لهم الحرية في إقامة شعائر الدين وشرائع التقاضي ، وان يخيرهم في البقاء أو المهاجرة .

ففتحت سرقسطة أبوابها في ١٨ تشرين الثاني ١١١٨ م (٤ رمضان ٥١٢ هـ) فدخلها ملك أرغون بعساكره محفوفاً برسوم الأبهة والجلال . وفيما هو يحتل قصورها وثكناتها ، ويحول مسجدها الجامع الى كاتدرائية ، كان عبد الملك بن هود يشد أثقاله ويحمل أمواله ويخرج في ماتم من أهله وحرسه إلى حصن روطة ليتخذة مقراً . وهاجر بعده كثير من المسلمين ، فمنهم من اقتفى أثره ، ومنهم من قصد مرسية او بلنسية .

وجعل ملك أرغون سرقسطة عاصمة لمملكته كما جعل ملك
قشتالة طليطلة من قبل ، فانهارت بها القاعدة الثانية من كبريات
قواعد الأندلس العربية بعدما لبثت اربع مائة سنة حصناً ركيناً
من حصون المسلمين ، وقضى في عين اسبانية المسيحية ، تعترض طريقها
جائئة على نهر ابره .

معركة الارك

كل امراء الأندلس ، كعبد الملك بن هـود ساخطون على
المرابطين ، يشتهون زوال دولتهم ، لا يحترسون من صفقة حمقاء
يعقدونها على غرار سرقسطة ، توسلاً للخلاص من جفاة الصحراء ،
شاء القدر المشؤوم ان يفزعوا اليهم في تفسخهم ، وخناق الاسبان
يلتف على أعناقهم .

فما نفس يوم الزلافة عن صدورهم حتى تهاوت التيجان عن
الرؤوس ، وتداعى عليها استقلال شعب ما انفك ، منذ أربعة
قرون ، ينافح الأعداء حرصاً عليه ، ويقرب لهيكله الحرام
غوالي الدماء .

فإذا هم في أرضهم طعام مأكول ، ودولتهم ولاية في دولة

المثمين ، واذا مراکش عاصمة لقرطبة أم العواصم ، وحاضرة
الخلفاء والملوك ، تنهى وتامر فتطاع ولا تُسال ، وتعطى ولا
تُحاسب . فان المرابطين ما تعودوا في عسفهم ، وعسف وطأتهم ،
بجاملة وبمأحا .

انهم يسوقون أهل الأندلس سوق الغالب للمغلوب ، ومغاشنة البدو
الغلاظ للحضر المتنعمين . يطاردون الفكر فما تطمئن اليهم فلسفة
أو منطق . ويبتعثون التعصب ، فكل مذهب الا مذهب مالك
مضطهد مكروه . بالحيف والارهاب يأخذون الناس ، وآذانهم يفتحون
للدسائس والوشايات .

دانت لهم الأندلس مستكينة للبطش والقوة ، فامتلكوها
قادرين . ولكنهم عجزوا عن امتلاك القلوب . برابر غرباء ، لا
روحهم روحها ، ولا عقليتهم عقليتها . فيهم قسوة وصلابة
واستبداد . فلبثت تملل حاقدة تحت قبضتهم العاتية ، شان كل
أمة مهيضة ، تعنو للسيطر ما دامت له القوة ، حتى اذا آنست
فيه الضعف افلتت غاضبة تطلب استقلالها المفقود .

ويقودها الحقد ، مع ما بها من وهن العود ، الى التخلص من
الغاصب على غير روية وهدى ، فتحالف دولة مخوفة الجانب ،
تستنصرها وتستخلصها مغفرة بما تجد عندها من العطف ولين

المواعيد . ويتغافل أصحاب الحكم فيها عن الخطر الجديد في الحلف الجديد ، يتهافتون عليه عامهين ، وهم لو راجعوا قرارة نفوسهم لرأوا انهم لم يقعوا على اهون الشرين .

بل حب التشفي من المتسلط القديم ، والأمل المعقود على الموهوم من فضيلة التغيير ، يجعلهم يتعامون عن الخطر الأعظم ، لا يبصرون لديه إلا خيراً وفرجاً ، فتمتد اليه الأيدي داعية ، مستجيرة من الرضاء بالنار ، لجوء امراء الأندلس الى ملوك اسبانية متتاسين مطامع قشتالة وأرغون ، وتاريخاً صارخاً مخطوطاً بالدماء ، أو كما لجأوا الى الموحدين يستقدمونهم .

وانما هم يستبدلون دولة افريقية ظافرة ، بدولة افريقية مغلوبة ، وينتقلون من استعباد الى استعباد ، لا يخطر لهم على بال ان يبحثوا في ذواتهم عن الداء والدواء بحثاً صادقاً مجدياً ، ليدركوا ان ما بهم من هزال ناشئ عن شقاقهم وتخاذلهم ، نتيجة مرض السيادة فيهم ، وعدوان قويمهم على حرية الضعيف . فاصبح بعضهم يناصر الآخر أو يخذله اذا واثبه عدو غريب . وربما حالف هذا العدو عليه ، لا يبالي ما يجر على بلاده وقومه من الهوان والدمار . فبين امراء الأندلس تبادل لا ينقطع من الطمع والحذر واضمار الشحناء ، مع ما هم عليه من الاستهداف الطبيعي لغزوات جيرانهم في الشمال والجنوب .

ومعلوم ان الممالك الاسبانية لا تقل عن الممالك الاندلسية
تباغضاً وخلافاً . غير انهم كانوا يدفنون أحقادهم إلى حين عند
تكالب الأخطار ، فيتهادنون او يتحالفون ليصرفوا قواهم الى
مجاهدة أعداء الدين ، وان كان بعضهم لا يستنكف أحياناً ان يحارب
أبناء ملته في صفوف المسلمين .

ويجدون عدا ذلك ، في الدول المسيحية المجاورة ، أعواناً
يخفون الى نصرتهم رغبة في الجهاد او شهوة للغنائم ، لا طمعاً في
الاستيلاء على بلادهم وإزالة كلمتهم ، كما يطمع سلطان مراكش في
التغلب على الأندلس ، فيستبد بشؤونها المرابطون ، ثم يستبد
بشؤونها الموحدون .

وقد صبر الاندلسيون على حكم أبناء تاشفين ، زهاء قرن ،
يقدمون لهم الطاعة كرهاً ، ولا يحجمون ، اذا أمكن ، عن خذلهم
في محاربة المسيحيين . حتى سقطت سرقسطة في يدي الفنس المحارب
(١١١٨ م) .

ثم تلتها معارك اخرى ، افتتحت خلالها قلاع حصينة ،
كان يعتصم بها المثلثون ، من بينها قلعة أيوب (Calatajud) ،
أناخ عليها الفنس سنة ١١٢٠ م ، فدافعه دونها الامير تميم ، ثم
اضطر ان ينزل عنها ، بعدما صرع أمامها عشرون ألفاً من

جنوده الابل .

فهذه الهزائم المتتابة نالت من هبة المرابطين ، وأطمعت فيهم اهل الاندلس ، فاستهانوا الوثوب عليهم لإجلاتهم واستعانة الحق المغصوب . وكانت قرطبة في رأس القواعد الاندلسية سخطاً وحنقاً ، يؤذي كرامتها ، جنف الصحراويين وغلاظتهم ، ولم يأن لها ان تنسى عزتها الملوكية والعرش الاثيل . فهبت ثائرة تضرب في وجه الحامية المرابطية ، وترى المنايا الوانا ، حتى حملت عليّ بن ناشفين على ان يعبر الزقاق بجيش هام ، فيخمد ثورتها بعد عناء .

ولكن ما حيلة المرابطين وقد تاذن القدر بانهار سلطانهم ، فتركهم غرضاً لسهامه ، فبينما هم يغالبون احرار الاندلس حيناً ، وغزاة الاسبان احياناً ، أخذت ثورة الموحدين تحتدم في المغرب ، فتستأثر بقواتهم ، وتشغلهم عن ضبط ولايتهم عبر المضيق ، ودرء الاعداء عنها .

فان الدعوة التي اظهرها مهدي بني مصمودة محمد بن تومرت كانت بليغة التأثير ، سريعة الانتشار ، فتبعه خلق كثير ، فوجد منهم عشرة آلاف ، وقدم عليهم أبا محمد البشير أحد صحابته العشرة ، وبعثهم لمجاهدة المرابطين ، فراحوا يغزون في بلاد المغرب ، وينكلون بالجيوش المرابطية (١١٢٢ م) حتى أوقعوا

الذعر في القلوب..

وما زال الخطر يعصف من بلد الى بلد حتى شارف مراكش العاصمة ، فدافع عنها المثلثون مستبسلين مستميتين ، فتمكنوا من انتقاذها ، وارتد عنها الموحدون خاسرين ، بعد ان قتل قائدهم أبو محمد البشير (١١٢٥ م) .

على ان انتصار المرابطين في مراكش ، لم يكن بوسعه ان يستر الخذالهم في الوقت نفسه ، أمام الفنس المحارب ملك أرغون . فقد أغار هذا الامير المقدام ، على الولايات الاندلسية متكلاً على مساعدة « الفرقة الخامسة » من المعاهدين (Mozarabes) ، وهم النصارى المستعربون الذي يعيشون في الاراضي الاسلامية .

واستطاع ان يجتأب الاندلس من الشمال الى الجنوب عائشاً مخرباً ينسف الزرع والعمران ، ويزداد جيشه تضخماً كلما تقدم بما ينضم اليه من المعاهدين حتى بلغ البحر المتوسط . ثم عاد برجاله سالماً غانماً منتصراً . أفلا يكفي هذا وحده أن يؤكد للاندلسيين ضعف القوى المرابطية ، فيستهينوا بها ، ويذهب ما عندهم لها من الحرمة ، وهم إلى ذلك يعلمون ان ثورة المغرب في أبان اشتغالها ، والمثلثون ، كما يبدو ، عاجزون عن إطفاء نارها .

فان هزيمة الموحدين في مراكش لم توهن عزيمه المهدي ولا صرفته
عن دعوته الجريئة ، فعهد في قيادة عساكره إلى عبد المؤمن بن علي
موضع ثقته العظمى ، وأحب صحابته اليه . فتمكن هذا من
الإيقاع بجيش عظيم من المرابطين يقوده الأمير . أبو بكر بن علي
(١١٣٠ م) . وعقب هذا الانتصار موت المهدي ، فبويح عبد
المؤمن بالخلافة بعده ، فتم على يده فتح مراكش وانهار عرش ابنائه
تاشفين (١١٤٦ م) .

ومن الطبيعي ان تساهم الأندلس في إرهاب المرابطين ، خلال
هذه السنوات ، مساهمة فعالة ، على أمل ان تخلع نير المقتصب ،
ويعود اليها استقلالها القديم . فإذا هي تخدم مصلحة الموحدين من
حيث أرادت ان تخدم مصلحتها . فقد شبت الثورة في البقاع
الغربية ، يورثها أحمد بن الحسين بن قسي ، فاندلعت سريعة ممتدة
إلى اشبيلية وقرطبة ، تتلقف المرابطين من كل صوب ، ويعجز عن
كبحها قائدهم يحيى بن غانية .

بيد انها تحتاج إلى نجدة تأتيها من الخارج فتضمن نجاحها ،
والموحدون في عدوة المغرب يشحنون في المرابطين ، فلماذا لا يدعوم
أحمد بن الحسين ويقدم لهم الطاعة ، حتى إذا أبطأوا عن تلييته
بشاغل حروبهم لا زهداً في الأندلس ، تلتفت انظاره إلى الفنس بن
هنري البورغوني ملك البرتغال ، فيمده بتجريدة بأسلة ، تنفذ في

الولايات المرابطية مفسدة ثقيلة الوطأة .

وكان عبد المؤمن أمير الموحدين يحاصر يومئذ مراکش (١١٤٦ م) ، وعيناه ناظرتان إلى الجزيرة ، يرى الملك البرتغالي يناصر الشوار ، ويملا يديه من الغنائم ، ويرى الفنس السابع ملك قشتالة^(١) ، يعضد المرابطين طمعاً فيهم ، ومعاكسة لصاحب البرتغال .

أفلا يجدر به أن يخف إلى نجدة ابن قسي^(٢) ، فيسحق قوات المثلثين ويقضي خطر المسيحيين عن الأندلس المسلمة ، فهو بها أولى ، واليه قبل غيره فزعته ونداؤها ، وهذه مراکش توشك أن تفتح له الأبواب .

فجهز حملة من عشرة آلاف فارس وعشرين ألف راجل ، وقدم عليها قائده موسى بن سعيد ، ثم أجازها الزقاق ، فافتتحت حصن الجزيرة ، وجبل طارق ، هازمة عنهما قوات المرابطين . ووافق ذلك سقوط مراکش ، وزوال دولة ابن تاشفين في إفريقية ، فبات من السهل على الموحدين ، وثوار الأندلس حلفائهم ، أن يستأصلوا بقايا أعدائهم ، أو يقسروهم على الجلاء .

(١) هو ابن ريمون البربرغوني ، وامسه اوراقا زوجة الفنس المخارب ، وقد مر ذكره قبل .

ومع هذا ، لم يتم لهم الأمر إلا غب معارك دامية ، بذل فيها
الفسن السابع جهداً عظيماً ، دون جدوى ، لنصرة الملتزمين ،
فاوهنت قواه على تقدم العمر ، فمات منهوكاً سنة ١١٤٧ م ،
وترامى شتيت المرابطين الى الجزائر الشرقية (Baléares) . أما
الأندلس فلم تزل تابعة لمراكش تحلم بالاستقلال ، وتستيقظ على
العبودية . بالأمس كان يتولاها الأمير تميم ، من قبل أخيه بن
تاشفين ، واليوم يتولاها السيد أبو يعقوب يوسف ، من قبل أبيه
عبد المؤمن بن علي ، بربري اثر بربري : ما أضيع الثورة في
سبيل الحرية !

لم يستطع الخليفة الموحي ان يدخل الارض الاندلسية إلا سنة
١١٦١ م ، بعد ان دوّخ بلاد افريقية وافتتح المهدي وتونس ، وكانت
في حكم النرمند أصحاب صقلية . فعبر المضيق ونزل بجبل طارق ،
فأنشأ فيه حصناً سماه جبل الفتح .

إلا انه لم يمكث طويلاً بل آثر العودة الى عاصمته المغربية ،
تاركاً جيشه يوالي منازلة الثائر محمد بن سعد بن مردنيش أمير
بلنسية وحليف قشتالة ولاون . وتوفي عبد المؤمن قبل ان تقمع
ثورة ابن مردنيش ، فتولى الخلافة ابنه أبو يعقوب يوسف ، فتابع
مجاهدة الثوار وحلفائهم الاسبانيين ، حتى استنزلهم عن بلنسية سنة
١١٧١ م ، فهرب محمد بن سعد إلى جزيرة ميورقة (Majorque) ،

وخضع اولاده لسلطان الموحدين .

وكانت البرتغال يومئذ أشد الممالك المسيحية صولة على الاراضي الاسلامية ، فان مليكها الفنس البورغوني ، بعد أن حقق استقلال دولته ، نازعاً عنها يد قشتالة ، صرف همته الى توسيع حدودها بامتلاك ما جاورها من الثغور الاندلسية ، فلقب بالفاتح ، لكثرة ما أخضع من المدن والقلاع . فكان على الموحدين أن يجابهوا هذا الخطر قبل استشرائه .

فحشد أبو يعقوب جيشاً عظيماً سنة ١١٨٤ م واجتاز به الى الاندلس قاصداً اشبونة (لشبونة) عاصمة البرتغال . فقطع نهر التاج ، فاعترضته قلعة شنترين الحصينة (Santarcin) ، فنصب لها ادوات الحصار ، وامر ابنه السيد ابا اسحق والي اشبيلية ، ان يسير بقواته في الصباح وجهة اشبونة ، ويحمي طريق شنترين . ففهم الامر على غير وجهه ، وارتد بعساكره نحو اشبيلية ، في حين ان شانجه (Sancho) ، ابن ملك البرتغال ، كان يتقدم الى شنترين بخمسة عشر الف مقاتل ، ثم ينضم اليه اسقف شنت ياقب بعشرين الفا .

فوقع الاضطراب في صفوف الموحدين ، وقلقت نفوسهم بغفلة ابي اسحق ، اذ اصبحوا بين القلعة والجيش الزاحف عرضة للتطويق . وأدركهم المسيحيون وهم على هذه الحال المزعجة ،

فقاتلوا قتال اليأس ، الواهن العزيمة ، فدارت عليهم الدائرة ، وقتلت نخبة فرسانهم . وصبر الخليفة أبو يعقوب لعض السلاح صبر الكرام حتى سقط مدرجاً بدمائه ، ثم توفي متأثراً من جراحه (١١٨٤ م) . وكان يوم شنتين مشؤوم الطالع على الموحدين ، فارتدت فلولهم الناجية الى قواعدها الاندلسية بأسوأ مصير .

وصارت الخلافة بعد أبي يعقوب إلى ولده الامير عبدالله يعقوب ، فتلقب بالنصور . وكان همه في بدء سلطانه أن يجهز على بقايا المرابطين في الجزائر الشرقية ليمنع عدوانهم ، او يخمد فتنة داخلية يحتل بها السلام ، فأتاح للبرتغال ان تغنم فرصة مؤاتية ، فتستأنف الغارات على الاندلس وتعود منها بفتح جديد . ثم توفي ملكها الفنس (١١٨٥ م) فتسلم العرش بعده ابنه شانجه ، فسار على خطة ابيه في منازلة المسلمين .

ثم شغلته احداث داخلية ، فترك الجهاد لالفنس الثامن ملك قشتالة . وكان هذا الامير لا يفتر عن غزو الولايات الاندلسية ، مع ما يعاني من مشاكل عسيرة تولدت بعد وفاة ابيه شانجه الثالث . وذلك ان جده الفنس السابع اتبع نظام ولاية العهد . الطريقة السيئة التي سنها اسلافه ، فقسم مملكته بين ولديه ، فجعل اكبرهما شانجه الثالث على عرش قشتالة . وأعطاه حق الجزية على مملكتي

نافار وارغون . وجعل اصغرها فردينان الثاني على عرش لاون وما يليها ، وأعطاه حق السيادة على البرتغال . وكأنه اراد ان يتدارك خطر هذه التجزئة فاشترط على فردينان ان يكون تابعاً لاخيه .

وفي سنة ١١٥٨ م توفي شانجه الثالث ملك قشتاله عن ولد في الثالثة من عمره اسمه الفنس ، ويلقب بالنبييل ، بعد ان عهد في الوصاية عليه الى بعض اشراف كاسترو من اكرم الاسر الاسبانية ، ولم يجعل الوصاية لزوجته بلانكه اخت ملك النافار ؛ ولا لاخيه فردينان خوفاً على الطفل من مطامع عمه وخاله . وكانت اسرة لارا تنافس ابناء كاسترو في الشرف والسيادة ، فساءها ان يصبح الملك في حوزة نديدها ، تعتر به ويتعاضم نفوذها وسلطانها . فحملها الحسد على ان تحتطف الامير الصغير وتجعله في عهدها . فادى عملها هذا الى حدوث مجزرة بين الاسرتين دميت لها اسبانية وتفككت اوصالها .

ثم استجاش آل كاسترو فردينان الثاني ليحمي ابن اخيه ، فساقه الطمع الى ان يبعث جيشاً يشحن في قشتالة ويحتل حصونها ومدنها . ولكنه لم يستطع ان ينتزع الطفل من ايدي بني لارا . واثارت قشتالة بجملتها تؤيد هذه الاسرة لوجود الملك عندها ، فقاومت صاحب لاون وأبناء كاسترو معاً ، وردت غزوات ملك

النافار وأمرء المسلمين .

ولما بلغ الفنس النبيل الحادية عشرة (١١٦٦ م) بويع بالملك ، يشد أزره القشتاليون وأبناء لارا ، فرد غارات عمه ؛ وطرده اسرة كاسترو ، فأخذت تلجأ حيناً الى الموحدين ، وحيناً الى لاون حتى توفي فردينان الثاني (١١٨٨ م) ؛ وصار الملك الى ولده الفنس التاسع ، ولم يكن كفؤاً لابن عمه صاحب قشتالة ؛ فكف عن النزاع .

وكان الفنس الثاني ملك ارغون ؛ وهو سبط راميرو اخي الفنس المحارب ، قد رأى أن يحالف قشتالة ويعترف بحقوقها ، لكي ينصرف الى محاربة المسلمين ، ودفع النافاريين عن الاراضي التي يفتتحها من الاندلس لئلا يستولوا عليها . اما الفنس التاسع ملك لاون ، وشانجه السابع ملك النافار ، فكانا يؤثران محالفة المسلمين على محالفة الفونس الثامن النبيل لانهما لا يريدان الاعتراف له بالسلطان . غير ان الخطر الذي بات يهددهم من قبل الموحدين ، اكرههم على السكوت فكانوا يتهادنون او يتحالفون الى حين .

وشاء الفنس الثامن ان يحمل على عاتقه عبء هذا الخطر الخفيف مع ما كان يعانيه من مكاييد آل كاسترو والامراء المسيحيين ، فراح يغزو الاندلس ، يعيث في بساططها ، وينيخ على قواعدها ، حتى أخذته نشوة الظفر وهو يسير من نصر الى نصر ، فحدثته نفسه

بان يتحدى خليفة الموحدين ، فيدعوه الى الحرب مستهيناً به ،
مثيراً حفيظته .

ويقول ابن ابي زرع في روض القرطاس ان الفنس النبيل
كتب هذه الرسالة الى الخليفة يعقوب المنصور وبعث بها الى
مراكش : « بسم الله الرحمن الرحيم .. من ملك النصرانية الى امير
الحنيفية . اما بعد فان كنت عجزت عن الحركة الينا ، وثاقلت عن
الوصول والوفود علينا ، فوجه لي المراكب والشواني أجوز فيها
بجيوشي اليك حتى اقاتلك في اعز البلاد عليك . فان هزمتني فهدي
جاءتك الى يدك ، فتكون ملك الدينين . وان كان الظهور لي ، كنت
ملك الملتين ، والسلام . »

وروى ابن الاثير وابن خلكان رسالة قريبة من هذه ؛ واكثر
تفصيلاً ؛ وعلق ابن خلكان عليها بقوله : « ان نص هذه الرسالة
كتب مثله الاذفونش بن فردكند (الفونس السادس بن فردينان)
الى امير المسلمين يوسف بن تاشفين . » ومهما يكن من شيء فان
الرسالتين لا تختلفان في المعنى وفي طريقة الاستفزاز . فلما وصل
الكتاب الى الخليفة المنصور ، تلظى غيظاً من صلف الملك
الاسباني واستخفافه المهيئ . فامر ولده وولي عهد السيد محمداً بالرد
عليه . فكتب على ظهره الآية : « ارجع اليهم ، فلتأتينهم بجنود لا
قبل لهم بها ، ولتخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون . » ثم اضاف

اليها^(١) : الجواب ما ترى لا ما تسمع :

ولا كتبَ الا المشرفة والقنا ولا رسلُ الا الخيس العرمم
وما كان من المنصور بعد ان تلقى كتاب الفنس ورد عليه
الا ان نشط للحرب يعد اهبتة ، ويعبىء الجيوش ويبعثها الى
الاندلس .

حتى اذا تم له الحشد العظيم عبر الى الجزيرة الخضراء ،
فانضمت الى جنوده العساكر الاندلسية ، فتألف منها جميعاً جحفل
جرار يضيق عنه الفضاء ، كما يعبر ابن الاثير ، وتقدره بعض
الروايات المغالية بستائة الف مقاتل . وكان الجيش النظامي فيه
مؤلفاً من قوات الموحدين الخاصة ، ومن الفيالق الاندلسية ، وسائره
جموع غفيرة غير نظامية من قبائل العرب والبربر الراغبين في
الحرب والجهاد .

ومما يجدر ذكره ان جيش الموحدين النظامي كان من ارقى
الجيوش في ذلك العصر ، ويعود الفضل في انشائه وتنظيمه الى
الامير عبد المؤمن خليفة المهدي ، فانه كان ذا خبرة عظيمة في

(١) اضافة رواها ابن الاثير والحق ابن خلكان بها الشعر . وهو الفتني ، ولعل الرواية
التي تكتفي بالاية وحدها هي الصحيحة .

تدريب الجيوش وقيادتها ، وإدارة حركاتها . فقد ابتنى في مراکش مدرسة عسكرية يجتمع بها نحو ثلاثة آلاف طالب من الأشراف يسمون الحفاظ وطلبة العلم . وكان يمتحنهم بنفسه ليقف على تقدمهم في فنون القتال ، فيشهد رياضتهم على أبواب الطعن والضرب والرمي والبارزة ، والعدو وركوب الخيل والسباحة وقيادة السفن والوثب الى سفن الأعداء ومعارك البحار .

فهذه العناية بتنظيم الجند ضمنت للموحدين جيشاً مدرباً أجمل تدريب ، يطمئنون اليه في محاربة أعدائهم ، ويجني لهم الظفر في أغلب المواقع .

وكان الخليفة المنصور يرمي في زحفه الرهيب إلى مساورة طليطلة عاصمة قشتالة . فبلغه ان الفنس الثامن حشد جيوشه بين قرطبة وقلعة رباح (Calatrava) بالقرب من حصن الأرك (Alarcos) ، ويسميه ابن الاثير وابن خلكان مرج الحديد . فغير خطته ودلف إلى لقائه حيث يربط بعساكره . فلما صار منه على مسافة يومين عقد مجلساً للشورى من كبار القواد وأصحاب الرأي ، ليتفق وإياهم على الطرق التي ينبغي اتباعها . وكانت القواد الأندلسيون أدرى من غيرهم بمكايدة الاسبان ، ومعاكسة أساليبهم ، فأحب ان يسترشد بنصائحهم ، فاستشار خصوصاً القائد أبا عبدالله بن صناديد ، لما يعرف عنه من الحنكة وصدق

النظر . فإشار عليه بتوحيد القيادة وخطّة القتال ، وإن يعهد في قيادة العساكر الأندلسية إلى رؤسائهم ، لأنهم لا يحسنون الحرب ، ولا يتحمسون لها إذا أقيم عليهم قواد غرباء . وأشار أيضاً بأن تقدم الجنود النظامية لمجابهة العدو والتقاء حملته إذا حمل ، وإن تبقى القوات غير النظامية واقفة على أهبتها احتياطاً للتجدة .

وإن ينزل الخليفة ، بحرسه الأبيض والأسود وراء التلال القريبة ، فإذا تراوح الفريقان غاراً النصر فاجأ العدو بهجوم صاعق فيقضي عليه .

استحسن المنصور هذه الآراء وأمر القادة بالتزامها . ثم أناط الرئاسة العليا بوزيره أبي يحيى بن أبي حفص وكان على شجاعته ، صاحب خبرة ودراية .

وأما جيش قشتالة ، فلم يكن ضئيل الحشد . فهو على رواية المستشرق جوزف أشباخ ، يزيد على مائة ألف مقاتل ، وتبالغ الرواية العربية فيه ، فترفعه إلى ثلاثمائة ألف . ومع ذلك كان لا يوازي جيش الموحدين في عدده ، فإن تعبئتهم يفوتها الحصر والاحصاء .

واعتمد الفئس ، على الأخص ، منظمات الفروسية المسيحية

كفرسان الداوية^(١) ، وفرسان قلعة رباح ، وغيرهم من جماعات الفروسية في مملكته . بيد انه استعظم الخطب حين انتهى اليه خبر تعبئة الموحدين ، فخشي سوء العاقبة إذا لقيهم بجيشه دون غيره . فكتب إلى نسيبيه ملك لاون وملك النافار يدعوها لترك الأحقاد ، والمبادرة إلى مساعدته . فأجاباه إلى طلبه نزولاً عند رغبة الشعب المتحمس .

وحشدا العساكر وسارا بها اليه ، الا انها كانا يزحفان بطيئاً ليصلا بعد فوات الأوان ، حتى يئس الفنس من مجيئها ، ولم يبق له سبيل غير مباشرة القتال . وأبى ان يتحصن بالقلع التي بين يديه ، فتمنعه ما طاب للمسلمين الحصار ، وكأنه عدّ ذلك عاراً ومذمة ، فاختار الهجوم مستتبلاً متكللاً على حيلة فرسانه . فابتدأت موقعة الارك ، في ١٩ تموز ١١٩٥ م ، (٩ شعبان ٥٩١ هـ) .

وكان الموحدون يحمون القلب بقواتهم النظامية ، والأندلسيون في الميمنة يقودهم عبدالله بن صناديد ، وقبائل العرب البربر في اليسرة ، والخليفة المنصور بحرسه وراء التلال . وعسكر الجيش

(١) فرسان الداوية هي جماعة فرسان الهيكل Les templiers نظمها الفرنجة في القدس سنة ١١١٨ م لحاية القبر القدس ، ثم افشي لها فرع في اسبانية .

الاسباني في مرتفع تحميهِ قلعة الارك من جانب ، وبعض التلال من جانب آخر .

فزحفت اليه مقدمة المسلمين من المتطوعة تمهد للمعركة بسهامها . فما تدانوا من التل الذي عليه الفنس حتى تجارى اليهم نحو ثمانية آلاف من كل فارس غارق في الحديد ، فالتقتهم المطوعة يساندها القلب والجناح الأيسر . فتعالى الصياح ، واستكت آذان الفضاء من وقع سنابك الخيل ، وتجاوب أصوات الأبواق والطبول . ثم استطال المسلمون فكسروا من حدة القشتاليين وردوهم على أعقابهم .

غير انهم ما عتموا ان جمعوا شملهم ، وجددوا الحملة عليهم ، فردوهم ثانية . ولكنهم كانوا 'عنداً صلاباً ، فلم ثن عزائمهم بعد الردين بل ضاعفوا قواهم ، واندفعوا ثلاثة كالعاصف الجارف وقد أحنقتهم الخيبة ، وزادتهم حاسة واقداماً ، فاخترقوا صفوف العدو وتوغلوا في الجناح الأيسر فزقوه ، وشتتوا جمعه فهلك الوف من قبائل العرب والبربر ، غير الجنود النظامية ، ولم تتم خطة عبدالله بن صناديد إذ أشار بأن يتركوا الميسرة للاحتياط والامداد .

ثم عطف القشتاليون على القلب وهو مرتعش مذعور لانكسار

حائطه الشمالي ، فصدعوا جانبه ناشبين في أحشاء الوحدين ،
يقلبون بعضها على بعض ، ويشطرونها أجزاء ، فتساقطت جثث
القتلى أكداً ، وغصت حناجر الأرض من ابتلاع الدماء . ولشد
ما عظمت فجيرة الموحدين بالقائد الأعلى أبي يحيى بن أبي حفص ،
تلقفته سيوف الاسبان بعد أن بلوا من سيفه أمر البلاء . وعندئذ
علا التكبير من الجناح الأيمن ، وحملت العساكر الأندلسية وبعض
بطون زناتة يتقدمهم القائد المجرب عبدالله بن صناديد ، فاقترحوا
قلب الجيش القشتالي ، وحجزوا بينه وبين فرسانه الطاعنين في
قلب الموحدين .

وكان الملك الفنس يتولى قيادته بنفسه ، ومعه عشرة آلاف
فارس ، فيهم الداوية وفرسان قلعة رباح ، فتلقاهم ثابت الجنان
يصابهم على قلة عدد ، ويدفع تيارات أمواجهم المتهايجة . وفيما
الأندلسيون يواثبون سفح التل ، والفنس يدافعهم عنه ، ووراءهم
فرسان قشتالة يزعمون قلب الموحدين ، بعدما شردوا الميسرة .

وفيما النصر يراوح بين الجانبين لا يدري له مستقراً ، إذا
بالطبول تفرع من وراء الآكام ، والخليفة المنصور يطلع بحرسه
المختار ، أمامه العلم الأبيض منقوشاً عليه : « لا إله إلا الله ،
محمد رسول الله ، لا غالب إلا الله . » فينقض على فوارس
قشتالة وهم يعمنون في القلب إرهاباً ، فيلام صدعه الدامي ، ويردهم

عنه مندحرين . فعاود الامل جنود الموحدين ، واشتدت سواعدهم
بعد ارتقاء ، فساوروا أعداءهم كالليوث مستبشرين بالنصر ،
لا يبالون ما يكلفهم من الضحايا هجومهم المجنون . فما زالوا بهم
حتى حطموا شوكتهم ، فانهزموا شامطيط إلى سفح التل يلوذون
بالفنس .

وأبى خليفة الموحدين ان يتصرم النهار قبل ان يحرز النصر
كاملا ، فمشى بالعدد الاوفر إلى التل يخترق قلبه ، ويساند قوات
الاندلسيين ، فدافعت فرسان الداوية وقلعة رباح عن مليكها أجد
دفاع ، فكانوا يتساقطون من حوله صرعى ، لا يحدثون النفس
بالفرار ، حتى لم يبق منهم إلا فضلة يسيرة لا تستطيع زيادا ،
فخشيت أن يفتك الاعداء بسيدها وهو مصرّ على الثبات لا يطيق
براحا ، فاكرهته على الانكفاء ، فانقذت حياته وكان بوده لو
يبنلها سماحا .

ثم اقتحم المسلمون حصن الارك ، فاستنزلوا أصحابه واستولوا
عليه . وهاجوا قلعة رباح فامتلكوها وكان فرسانها قد تخلوا عنها .
وانتهت المعركة بانكسار ساحق للاسبانيين .

يقول ابن خلدون ان المسيحيين خسروا في هذه الواقعة ثلاثين
الف قتيل . أما ابن الاثير فيجعل القتلى ستة واربعين الفا ومائة الف ،
والاسرى ثلاثة عشر الفا . ويقدر قتلى المسلمين بنحو عشرين الفا .

وكانت الغنائم عظيمة جداً .

قال ابن خلكان : « وغنم المسلمون أموالهم حتى قيل ان الذي حصل لبیت المال من دروعهم الف درع . وأما الدواب على اختلاف أنواعها ، فلم يحصر لها عدد . ولم يسمع في بلاد الاندلس بكسرة مثلها . »

فمعركة الارك ، لا جرم ، ثلت عز قشتالة ، وهتكت حرمة سلطانها . وما كان الامراء المسيحيون يتوقعون لها هذه الكارثة الشنعاء ، وقد بلوا صولتها وجبروتها ، فوقعت هيبة الموحدين في نفوسهم ، وداخلهم الخوف على اماراتهم ، فاسرعت مملكتها لاون والنافار إلى محالفة الخليفة المنصور ، وهما في خذلها لالفنس الثامن ، وتأخرهما عن نجدته ، أوصلتا إلى هذه النتيجة الفاجعة . يضاف الى ذلك ما لقي المسلمون من مساعدة الكونت بدرو أحد أبناء كاسترو ، فقد كان هذا الامير فاراً عن وطنه مع اعوانه ، نائماً على قشتالة التي رفعت أسرة لارا باذلال أسرته ، فلم يتأثم ان يبيع أمته ويقدم سيفه للموحدين .

ثم ان الملك الفنس رأى ان يحذو حذو لاون والنافار فيسترضي المنصور ويلتمس منه الهدنة بعدما أبصر جيوش المسلمين تتابع الغزوات في ولاياته ، تتلف الزرع ، وتقطع الشجر ، وتبلغ أبواب

طليطلة ، وهو لا يجرؤ ان يخرج إلى لقائها ، بل يرى الخير ، من
خوفه ، في الامتناع بقلاعه وحصونه . وقد رضي المنصور بمهادنته
لانه كان مضطراً إلى مغادرة الجزيرة ليخمد ثورة لا يبرح يشعلها
في افريقيا والمغرب بقايا المرابطين . فعاد إلى مراكش يصلح من
شؤونها ، وامنت رياض الاندلس شر اسبانيا زمناً ، ولكنها ما
نالت من نعم الاستقلال الذي حاربت عليه الإمارات المرابطية
، المسيحية إلا شارة الخضوع لسيطرة الموحدين .

معركة العقاب

بين معركة الأرك، ومعركة العقاب ، سبع عشرة من السنين
ساقطت ورقات يومياتها عن أحداث وشؤون كانت بطبيعتها معلولا
للأولى ، وعلة للآخرى .

فان انتصار أمير الموحدين على قشتالة ، وما تلاه من خضوع
الفنس الثامن لسيفه ، والتماسه الهدنة منه ، وإسراع ملكي لاون
والنافار إلى مخالفته وخطب وده ، مكن سلطانه في الأندلس ،
وحرمته في النفوس ، وأتاح له أن يتفرغ إلى إصلاح فتوق مملكته ،
وتأديب العصاة والتأثرين دون أن يصرف النظر عن أمراء اسبانية ،
وما في صدورهم من ضغائن يحفظها بعضهم لبعض .

فقد كان المنصور ، على علو همته ، وافر الذكاء ، بعيد النظر ،

لا يسقط عنه ان يستغل خلافهم لمنفعته وخير أمته ، وهو يعلم انه ما دام الشر معصوباً بينهم ، لا يرتفع لهم صوت جهير ، ولا يفتيء عليهم ظل ممدود ، في بقاع يعمرها الاسلام . أفما يحذر به أن يحرك فيهم ، من وراء حجاب ، لاعج العدوان ، فتنام الأندلس على أمن وسكينة ، وتشرق اسبانية المسيحية بدمها إلى يوم يوهنها النزف ، فترتمي متلاشية على أقدام المسلمين ؟

فلاون والنافار متعطشان للانتقام من قشتالة وإذلالها لما تفرض عليهما من السيطرة ، فطبيعي أن تستهينا جانبها جزاء كسرتها ، فتستنزلاها إلى محاربتها بعد أن تخللتا تخومها عاديتين بتحريض الموحدين ، ووعدهم بالمساعدة .

وذهب المنصور إلى أبعد في توسيع الخرق بين الأمراء المسيحيين ، فحاول أن يجعل حليفه ملك النافار تابعاً له ، على أن يزوجه إحدى بناته .

وتقول الرواية الاسبانية ان شانجه السابع اغترّ بهذه المواعيد فقصده إلى مراکش بغية تحقيقها ، توأكبه كتيبة من الفرسان . بيد ان الرواية العربية لا تذكر شيئاً من خبر الزواج ، بل تقول ان ملك النافار جاء اشبيلية سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) ، ليزور الخليفة الناصر بن المنصور . ومهما يكن من أمر الزيارة وزمنها ومكانها ،

فان المصاهرة لم تربط أواصرها بين الأميرين ، فرجع شانجه إلى مملكته فارغ الفؤاد ، وقد علم ان الزواج من أميرة موحدية يدعو إلى الإسلام ، وبإسلامه لا يطمئن له عرش النافار .

على ان هذه الجهود التي بذلها المنصور لتمكين سلطانه ، وإضعاف ملوك اسبانية ، لم تلبث ان تراخت عزائنها بموته سنة ١١٩٩ م (٥٩٥ هـ) وقيام ولده محمد أبي عبدالله الناصر . فإن هذا الأمير مع شجاعته ، لم تكن له مواهب أبيه ، وصلابة عوده ، فاسلم ارادته الى حاجبه أبي سعيد بن جامع ، فورطه في مزالق لا تنبىء عن أمانة الوزير واخلاصه .

وكان هم الخليفة الجديد ان يترسم أباه في ضبط الولايات الأندلسية ، وإرهاق ملوك اسبانية مستثمراً شقاقهم ، غير انه لم يتمكن من الالتفات إلى عدوة أرونة إلا بعد أن دفع خطر المرابطين عن افريقية ، وأزال بقية دولتهم في الجزائر الشرقية (Baléares) (١٢٠٨ م) .

كان البابا اينوسان الثالث قد استطاع ، في تلك الأثناء ، بسلطانه الديني ، أن يصلح بين الأمراء الاسبانيين إلى حين ، ويؤلف قلوبهم على محاربة المسلمين .

فنشط الفنس الثامن ملك قشتالة إلى غزو الأندلس (١٢٠٩ م)
فاوغل فيها باطشاً فاتكاً . ثم أغار عليها ثانية (١٢١٠ م) فانكسف
كورة جيان (Jaén) وياسة (Baéza) واندوجار (Andujar)
وعاد في المرتين بجلائل السبايا والغنائم .

فعندئذ نادى الخليفة الناصر بالجهاد ، وقد راعه تغلب العدو
على كثير من الحصون الأندلسية ، فجمع الجموع وحشد العساكر ،
حتى بلغت تعبئته ستائة ألف فارس وراجل ، فعبر المضيق إلى
إشبيلية (١٢١١ م - ٦٠٧ هـ) يستعد للقتال . فنصح له حاجبه ابن
جامع الا يتقدم في بلاد الفنس قبل ان يفتتح قلعة شلبطرة
(Salvatierra) ، فساورها ثمانية أشهر ، وهي ممتعة عليه
لحصانتها ، فهلك دونها الوف ، وابن جامع يمنع الناصر أن يرفع
الحصار عنها ، ويتجاوزها إلى طليطلة ، حتى أضرّ بها الجوع المرير
فاعطت قيادها مكرهة ، بعدما اتقذت اسبانية المسيحية بصرها
الطويل كما يقول جوزف أشباخ .

ذلك بانها أتاحت لألفنس الثامن أن يستصرخ دول اسبانية
خصوصاً ، وأروبة عموماً لتجهيز حملة صليبية غربية تذكر
المسلمين بحملات الصليبيين في الشرق . فقد ازعجه ما انتهى اليه من
أنباء قوات الموحدين ، وزحفها الجرار ، ولاح له الخطر الخوف
ينقض على قشتالة ، بل على الامارات الاسبانية مجموعة ، وهيئات لا

يرجى دفعه عنها ، إلا إذا تظاهرت عليه وتناست أحقادها ، وخير لها أن تستنجد أبناء ملتها في الغرب .

فبعث جرهارد مطران سقوية (Ségavia) إلى رومة يلتمس من الحبر الأعظم أن يدعو الأمم المسيحية الى نصره الصليب . وبعث المؤرخ ردرىق مطران طليطلة وسواه من المطارنة الى فرنسا وما يليها من الدول الأروبية ليستثيروا الشعور الديني ، مبينين الخطر الذي يهدد النصرانية ، ودعا الأمراء الاسبانيين الى الاجتماع والمفاوضة ، ووضع الخطط التي ينبغي اتباعها .

فتكللت هذه المساعي بالنجاح المأمول ، ولبت أروبة دعوة الكرسي الرسولي ، ونداء الأساقفة المتحمس ، واقتنع ملوك اسبانية بضرورة الاتحاد . فما طال الأمد حتى بدأت الوفود تتلاحق الى طليطلة من مختلف الأمصار الأروبية ولا سيما فرنسا ، حاملين شارة الصليب دليل الزيادة عن الدين ، يتقدمهم كبار الأحرار يستحثونهم ، ويوقدون الحمية في الصدور .

يقول جوزف أشباخ ، ان جيش الوافدين بلغ في اوائل حزيران ١٢١٢ م اكثر من عشرة آلاف فارس ، ومائة الف راجل ، فيه من القوامس ما يقدر بالفين ، اصف اليه ما ارسلت فرنسا وايطاليا من المال والمؤن والسلاح .

وأما الجيوش الأسبانية ، فأول من قدم منها جيش أرغون يقوده عاهله بدرو الثاني ، وفيه طبقة مختارة من الكماة كجماعة الداوية (فرسان الهيكل) . وتتابع بعد الفيلق من لاون وجيليقية والبرتغال ، حتى فاضت طليطلة وأرباضها بالعساكر المنتشرة ، والخيام المنتصبة ، والخيول والعتاد . ثم زحفت هذه القوى العظيمة طالبة قلعة رباح ، وفرسان هذه القلعة يلتهبون حماسة لاسترجاعها .

وكان فيها حامية من الموحدين على رأسها القائد يوسف بن قادس ، فهاجمتها الجيوش المسيحية دفعة واحدة ، فاستولت على المدينة دون القلعة . فخشي ابن قادس مغبة الحصار اذا افتتحت القلعة عنوة ، وهي لا محالة ساقطة في أيدي العدو ، فمن العيث ان تحاول قتلها مقاومة الكثرة . فآثر ان ينقذ حاميتها من الهلاك بالاستسلام ، اذ لا ينفع الدفاع قتيلا . فبعث الى ملك قشتالة رسولا يفاوضه من قبله ، مشروطاً أن تخرج الحامية بسلاحها مأمونة .

فرفض الارغونيون ووفود المحاربين هذا الشرط ، وطلبوا متابعة الحصار ، فاضطر ابن قادس ان يرضى بتجريد الحامية ، فغادرت القلعة بعد أن أخذت الأمان على نفوسها ، وتولى الفرسان الاسبانيون حراستها مخافة ان يفتك بها جند الوافدين لأنهم كانوا

يريدون قتلها ، وقد اغضبهم تأمينها . فسار بها ابن قسادس إلى الخليفة الناصر ، فأطلعه على ما قام به من التدابير لحقن دماء المسلمين حيث لا يفيد بذلها .

ولكن ابن جامع أبى إلا أن يتزل القصاص بالقائد الحكيم ، فأغرى الناصر به متهماً إياه بالتقصير والخيانة ، فقتل المسكين وطابت نفس الحاجب الماكر . فاستاء الناس لهذا الحادث ولا سيما الاندلسيون ، وكانوا يكرهون ابن جامع لتكرار مكائده . فأبدوا نفورهم من عمل الناصر ، وهم إنما جاؤوا للحرب متثاقلين ، ساخطين على الموحدين كما سخطوا من قبل على المرابطين .

كيف لا وما زالوا يشعرون بضياح حقوقهم شعورهم بالأمس . أفترام يحسنون القتال ، ويثبتون للضرب والطعان ، وفي الصدور حرايات وشهوات لا يسكنها إلا الخذلان الموحدين ، لعل الاستقلال اليهم يعود؟ ومثل هذه الحالة النفسية ، في جيش يتأهب للكفاح ، ينذر ، ولا بد ، بخطب جليل .

وكذلك العساكر المسيحية لم تسلم من التصدع على اثر استنزال الحامية من قلعة رباح مأمونة ، فان وفود الفرنجة ما لبثوا ان جاهرُوا بامتعاضهم من الاسبانيين ، فقفلوا راجعين الى اوطانهم متهمين ملك قشتاله بأنه استأثر بنفائس القلعة وأموالها . وقيل

ان عدد الذين رجعوا يبلغ خمسين الفا من مائة الف . الا ان انفصالهم عن الجيش ، قبل المعركة ، كان أخف ضرراً مما لو انفصلوا في أثناءها ، وأوقعوا خللاً فجائياً ، يصعب تلافيه ، في ترتيب الصفوف ، وتنظيم أجزائها .

فقد استطاع الاسبانيون بعد رجوع هؤلاء المحاربين أن يجمعوا أنفسهم ، ويدلفوا بقدّم ثابتة إلى حصن الارك ، ولهم فيه أوجع الذكريات ، فيفتتحوه بيسر مستبشرين . وفيما هم يتقدمون إلى لقاء الناصر ، وافاهم شانجه ملك النافار بجيشه ، فرأب الخلل الذي أحدثه إياب الفرنجة المتطوعين .

روى المستشرق جوزف أشباخ ، ان الناصر بقي يتحامي اصطلاء المعركة على ضخامة جيشه ، خوفاً من المحاربين الصليبيين لأن شجاعة فرسان الفرنجة طارت شهرتها من الشرق إلى الغرب ، فلما بلغه انهم انفصلوا عن الاسبانيين ، ورجعوا إلى بلادهم ، زالت وساوسه ووطن النية على طلب القتال ، والسير الى العدو .

وكان الاسبانيون قد نفذوا إلى جبل الشارات (Sierra Morena) في ١٢ حزيران ، وامتلكوا ، على بعض قممه ، قلعة للموحدين ، فبادر الناصر ، فعبر الوادي الكبير إلى الموضع المعروف

بالعقاب^(١) (Las Navas de Tolosa) وسد بجيشه منافذ جبل
الشارات ، فتازم موقف المسيحيين في شعافه ، إذ أصبحوا متعذراً
عليهم هبوط السهل للقاءة الموحدين ، فهم مضطرون الى أحد
أمرين : إما البقاء وتعريض النفس للجوع والعطش ، وإما الرحيل
حيث يتحدث الناس عنهم بالهزيمة بعد أن حشدوا قوات الممالك
الاسبانية .

وفصل المستشرق جوزف أشباخ هذه المعركة تفصيلاً دقيقاً
رأينا أن نستند اليه في وصفها وذكر أحوالها . فان ملوك الاسبان
بعدها وقفوا حائرين بين اللبث والقفول ، وانس الثامن أشدهم
عناداً وكرهاً للتقهقر والرجوع ، تمكنوا من الانحدار إلى السهل
بطريق خفي أرشدهم اليه بعض الرعاة ، فسار أمامهم دليلاً حتى
بلغ بهم مسلكاً صالحاً ينزل منه إلى سهل ابدة (Ubeda) .
فاعتبر المسيحيون هذا الراعي رسولاً من لدن الله . وانتقلت
جيوشهم من الجبل الى السهل دون ان ينتبه المسلمون لحركاتهم ،
ذلك بأن الملوك الثلاثة ظلوا في القلعة لا يغادرونها حتى تم انتقال
العساكر .

(١) . قد تكون العقاب جمعاً يعني عقاب الجبل مفرعها عقبة ، وقد تكون مفرداً بمعنى
الطائر المعروف الذي يحتل القمم العالية ، يميز ذلك ان ريش القرطاس يسمى السكان
بمحسن العقبان

فلما خلا منهم جبل الشارات ظن الموحدون انهم احمدوا
الفرار ، وضجروا من البقاء . ولكن ما عتموا ان أبصروا معسكرهم
في السهل المقابل ، فعلموا انهم خدعوا ، ولم يفتنوا لانتقال
العدو ، فتركوه يحتل مكاناً أفضل من مكانهم ، يشرف عليهم من
الربى العالية . بيد ان الناصر كان معتداً بعظمة جيشه ، فلم
ييال هذا التبدل في الموقف ، واعتقد ان النصارى لا يصبرون
طويلاً على حربه ، وسيحتاجون إلى المؤن والذخائر في انقطاعهم
عن قشتالة .

فبايدي عساكره الحصون الجبلية جميعاً ، ومنها القلعة التي
احتلها الاسبانيون في البدء على جبل الشارات . فما تلبث ان باشر
الدعوة للقتال ، فابوها في اليوم الأول لما هم عليه من التعب ثم
أبوها في اليوم التالي لأنه يوم أحد ، فكرهوا أن يحاربوا فيه .
فلما كان صباح الاثنين في ١٦ تموز ١٢١٢ م (١٥ صفر ٦٠٩ هـ) ،
أقام الأساقفة الصلاة ومنحوا الجنود البركة الرسولية ، والغفران
الكامل .

ثم جعل الملوك والقواد ينظمون جيوشهم ، فوقف الفنس
الثامن ، ملك قشتالة في القلب يدير حركاته ، ويشرف منه على
سائر الأقسام . ويتألف القلب من أربع فرق ، إحداها فرقة
الجبلين القشتاليين يتقدمها القائد ذو هارو . والثانية فرقة فرسان

قلعة رباح ، وشنت ياقب^(١) (Santiago) ، والداوية ، والاستبارية^(٢) (Les Hospitaliers) ، يتقدمها الكونت ذو لارا . والثالثة فرقة فرسان قشتالة القديمة ، واشتوريش (Asturias) ، وبسكونية (Biscay) ، يتقدمها الكونت ردرىق دياز . والرابعة الفرقة الاحتياطية من طليطلة ولاون يقودها الملك الفونس بنفسه .

وأما الجناح الأيمن فكان على رأسه شانجه السابع ، ملك النافار ، وفيه جنوده وفرسانه ، والكافة الفرنسيون الذين آثروا البقاء ، وفيه جنود جليقية والبرتغال يتقدمهم الأمير بدرو البرتغالي .

وينقسم الجناح الأيسر على أربع فرق تضم العساكر الارغونية وبعض رجالة قشتالة ، يتقدمه بدرو الثاني ملك ارغون .

واصطفت عساكر المسلمين في سهل العقاب مقابل أبدة ،

(١) الشنت جماعة فرسان شنت ياقب في حليقية سنة ١١٦١ واقفة حياتها على الذود عن الدين ، وكان شعارها سيف القديس يعقوب دائماً في صورة الصليب .

(٢) نشأت جماعة الاستبارية (فرسان المستشفى) في القدس على اثر نشوء الدارية ، وساهمت في الحروب الصليبية ، وحماية القبر المقدس ، وقام لها في اسبانية فرع كما قام للداوية .

مقسومة على خمس فرق يتألف منها الخيس العرمرم . ففي المقدمة
فرقة المطوعة ، وتجعلها الرواية العربية ستين ألفاً ومائة ألف .
وفي الميمنة الجنود الاندلسية . وفي اليسرة البرابرة . وفي القلب
جيش الموحدين . وفي المؤخرة الفرقة الاحتياطية من المغاربة
والجيش النظامي . وبين القلب والمؤخرة نصبت للخليفة القبة
التقليدية الحمراء التي ورثها المسلمون عن عرب الجاهلية ، وأمامها
جواده مسرجاً ، يحيط بها حرسه الخاص من الفرسان والمشاة ،
بأيديهم الرماح الممدودة ، ودون الوصول إليهم دائرة شدت من
سلاسل الحديد .

وما انتهى تنظيم الجيوش حتى تجاوزت أصوات الطبول والأبواق
من الجانبين ، فارتجت لها الرى والسهول ، وإذا الخليفة الناصر
يخرج من قبته وعليه عباءة سوداء . فرفع المصحف بيد والسيف
بالأخرى ، إشارة الهجوم ، فحملت المطوعة خفيفة عنيفة تلطم
القلب ، فالتقاها الجبليون وجماعات الفرسان بحملة معاكسة ألانت
من حديثها .

ثم لم يلبثوا أن استطالوا عليها وأكثروا من الفتك بها فاضطروها
الى الفرار ، فانهزمت أمامهم وهم يطاردونها بالحراى فى اقفاءها .
فلما اقتربوا من القلب يبعونه ، صدمتهم قوى الموحدين النظامية ،
فأروا أمامهم جنوداً بأسلة ، مجربة فى الحروب ، مدربة أحسن

تدريب . وما طال الأمر حتى تمزقت جموعهم ، فتشتتوا عنها
منهزمين .

فرجحت كفة المسلمين ولاح لهم وامض النصر ، فهللوا
مستبشرين . ولم يكن ملك قشتالة يتوقع هذا الفشل من القلب وفيه
ُصيانة الفروسية الاسبانية ، فطار رشده ، واشتبهت نفسه الموت ،
فشى الى المعركة يريد أن يخوضها بفرقة الاحتياطية ، فمنعه
المطران ردرىق والقوامس أن يغرر بحياته ، والتمسوا منه أن
يكتفي بانعاش القلب المتدهور ، فامده بنجدة مختارة يتقدمها
الاساقفة ، يحملون الرايات عليها صور الطفل الالهي وأمه البتول ،
فاستثاروا بها حماسة الفرسان المنهزمين ، فعاد اليهم نشاطهم ، وأتاح
لهم هذا المدد ان يلموا شعشهم المنتشر ، ويكروا ثانية على جيش
الموحدين ينقرون حبة قلبه ، ويرمقون دائرة السلاسل حيث الخليفة
الناصر ، والقبعة الحمراء .

ومن دون الدائرة احوال تُختطف عليها الأعمار ، فليس صدع
القلب بالهين السهل ، وفيه نخبة الجيش النظامي . ووراء السلاسل
عدد كثير من الحراس الأشاوس يحرسون القبة بغاية من عوامل
الرماح . ولكن قد تجري الأقدار بما لا يتوقع الانسان ، فبينما فوارس
قشتالة يصكون القلب ، والقلبُ ثابت لا يتحلحل ، اذا الجناح الآمين
يلتوي فجأة وينهزم الأندلسيون تاركين رفاقهم ، وكانوا ، كما علمنا ،

نائمين على الموحدين يضمرون لهم الشر ، فلم يقاتلوا قتالهم المعهود في المعارك التي يصطلونها متحمسين . وهم كمعادتهم متهورون في أعمالهم لا يفكرون تفكيراً صحيحاً في نتيجة ما يصنعون .

وما كادت اليمينه تتعطل حتى مشت الميسرة على أثرها فتقصف جناح البربر ، وبقي القلب عارياً من الجانبين يدافع الاسبانيين ويصابهم ، وهؤلاء قد ازدادوا حمية واقداماً بعد تحطيم الجناحين ، فصدعوا القلب الجريء وأوغلوا في أوساطه يقرعون دائرة السلاسل ، فجرت أمامها انهار من الدماء ، وتكدست حولها جثث القتلى تلالاً . الموحدون في القلب مخرقة صفوفهم ، يستमितون مقاومة ودفاعاً .

والمغاربة في المؤخرة يقدمون لسد الثلمات غصاباً . والأحراس البيض والسود يطاعنون الخيل عن حرم القبة وحرم الخلافة : مشهد رائع تجلت فيه البطولة الاسلامية بأجل معانيها ، تغالب اليأس ، والياس غالبها ، وترتجي الظفر وقد أشاح بوجهه عنها . أقبل الحظ على الاسبانيين ، وما كانوا دون اعدائهم جراءة وعناداً ، فشدوا عليهم ملحين ، يستعجلون النصر قبل هزيمة النهار ، لا يبالون في كسبه خسارة الأرواح ، فهم يشقون الصفوف ويتقدمون ، وهم يحيطون بدائرة السلاسل فيقتحمها الكونت ذو لارا واثباً بجماعات الفرسان ، ويقتحمها شانجه ملك النافار وبدرو ملك ارغون من

من اليمين والشمال ؛ فانهارت قوى الدفاع من كل جانب ، واستات الحراس على غير جدوى وفي القبة. الحمراء سيد الموحدين ، قاعد على درقته ، يتلقى الأنباء شيئاً بعد شيء ، متجلداً مكفهرأ ، حتى جاءه النبا الاسوأ : قتل ابنه واعتصم الجيش بالفرار / فوقف الناصر حينئذ وقال : « صدق الرحمن وكذب الشيطان ! » ثم ركب حصانه المبرج ونجا بجماعة من أصحابه .

وكان المسيحيين ، وقد أخذتهم نشوة القلب ؛ أبو الا ان يعيدوا الطعن في أثر الهاربين ؛ فتعقبوهم تشفياً ؛ وانتقاماً ؛ فقتلوا منهم في أثناء الهزيمة اكثر مما قتلوا في أثناء المعركة .

/ وتقول الرواية العربية ان خسارة المسلمين كانت جسيمة جداً اذ لم ينج منهم سوى مائة ألف من ستمائة ألف مقاتل . في حين ان الرواية الاسبانية اكثر اعتدالاً في حسابها . فلا ترفع خسارة العدو الى أعظم من مائتي ألف ؛ ولكنها تجمع في الوقت نفسه على ان خسارة المسيحيين ليست بذات شأن .

وهذا صعب التصديق ؛ لأن الحرب في مرحلتها الأولى كانت دائرة على الاسبانيين ؛ ثم ان اقتحام السلاسل ماتم لهم إلا . بعد توضحيات جليلة وبلاء كبير ؛ فغير معقول أن تكون خسائرهم لا تستحق الذكر كما يزعم الرواة الاسبانيون .

بيد انها تبدو ضئيلة إذا قيست بخسائر أعدائهم ، لأن فشل
العساكر الاسلامية لم يقع على صورة عادية مألوفة ؛ فقد تراجعت
صفوفهم وتمزقت اشتاتاً قبل ان تمنى بالانكسار ؛ فناها من التقتيل
في ذعرها وتبددها شيء عظيم ؛ وحقت عليها الهزيمة مع ان قواتها
تبلغ ضعفي قوات المسيحيين ؛ وجيش الموحدين النظامي لا يقوقه
جيش في بسالته وتدريبه .

فلا غرو أن يجعل النصرارى ظفرهم مستمسداً من الله ؛ فتنشأ
عندهم أسطورة دينية يثبتها بعض المؤرخين ؛ تقول بأنه ظهر في
السماء ؛ قبيل المعركة ؛ صليب ساطع النور ؛ وتحتفل طليطلة كل
سنة في ١٦ حزيران بعيد « انتصار الصليب » ؛ مع ان المراجع
الوثيقة لا تذكر هذه المعجزة ؛ ولا ذكرها الفنس الثامن في روايته
لأخبار المعركة .

على ان انكسار المسلمين ؛ وان بدا غريباً في ظاهره ؛ لا يلبث
ان يصبح طبيعياً اذا نظرنا الى العوامل التي أحاطت به . وأهمها
تخاذل الجيش الأندلسي وانكفاؤه في أوائل المعركة حيث تصدعت
اليمينه ؛ ثم تأثرتها الميسرة بفشل البرابرة وقلة ثباتهم امام شانجه
السابع واجناد فرنسا والبرتغال والنافار . فاختلف بذلك قلب الموحدين
واشتد عليه الضغط من الامام والجانبين .

ويروي ابن خلدون حادثاً آخر له أثر فعال في هزيمة
الموحدين ، وهو ان صاحب لاون ، ويسميه مرة ليهوج ، ومرة
الببوج ، قد مكر بالخليفة الناصر ، فقدم عليه فداخله ، وأظهر
النصح ، فبذل الخليفة له أموالاً ، فلما كانت وقعة العقاب غدر
الاسباني به ، وكرّ عليه يقاتله برجاله ، بدلاً من ان ينصره
كما وعد .

غير اننا لا ندري من أراد ابن خلدون بصاحب لاون ، لأن
الاسمين اللذين ذكرهما بعيدان في لفظهما عن اسم الفنس (ملك
لاون) واسم أخيه شانجه (Sancho) الذي كان يحارب في صفوف
المسيحيين يوم العقاب . أما الرواية الاسبانية فلم تشر إلى هذا الحادث
وإنما قالت ان الفنس التاسع ملك لاون لم يحضر بنفسه الحرب لخلاف
بينه وبين ملك قشتالة على بعض الحدود ، فاكتمى بأن يبعث اخاه
شانجه مكانه .

فاذا صحت رواية ابن خلدون ، فان الناصر لا يعذر في اتكاله
على مواعيد الأمير الاسباني دون ان يحتاط لأضرارها ، متوقعاً
الكذب والخداع فيها . وكذلك كان قصير الرأي في استسلامه
لنصائح ابن جامع ، إذ حبس جيوشه ثمانية أشهر على حصار شلبطرة
بدلاً من أن يقودها إلى طليطلة فيسحق مملكة قشتالة قبل أن
يتمكن الفنس الثامن من جمع كلمة الأمراء المسيحيين على مساعدته ،

والاستفادة من نشاط الأحيار ودعوتهم إلى الائتلاف تحت راية الصليب .

ان زوال إمارة قشتالة ، وهي أعظم دولة في اسبانية ، يفضي ، لا جرم ، إلى انهيار سائر الإمارات الاسبانية ، الواحدة تلو الأخرى . فان القوات التي حشدتها صاحب مراكش لمحاربة الاسبانيين جعل منها أضخم جيش عرفته القرون الوسطى . ولو أحسن الحيلة والتدبير لكان من الممكن ألا يقف في فتوحه عند الولايات الأندلسية التي غنمها المسيحيون وضموها إلى ممالكهم ، بل يتخطاها إلى الأراضي الاسبانية فيبسط عليها سلطانه .

ويلام ، وهو القائد الأعلى ، لغفلته عن حركة العدو وانتقاله خفية من جبل الشارات ، حتى استطاع أن ينفذ الى أبدة ، ويحتل في رباها مواقع تفضل مواقع المسلمين . ورأينا الناصر يدعو الى الحرب ، فيأبأها في اليوم الأول والثاني من وصوله طلباً للراحة . ولا يجرؤ الناصر على مهاجمته ، مع علمه بتعبه ، لمناعة روايته .

ويؤخذ على الموحدين ، ما يؤخذ على المرابطين من سياسة الاستئثار بالحكم والنفوذ في الأندلس ، فأسأؤوا إلى أبنائهم ، وحركوا الضغينة في نفوسهم ، فقدموا معهم الى الحرب وهم

مرصدون لكرورهم . فكان الجيش الاسلامي ، دون الجيش المسيحي نشاطاً واثلاً وحاسة للدين ، فدارت عليه معركة العقاب بشؤم الطالع ، فمحقت قواه الجبارة ، وأضعفت سلطان الموحدين فمالت بملكهم إلى الغروب ، وكانت للمسلمين نذيراً بزوال كلمتهم عن الاندلس ، وللمسيحيين بشيراً بانتقشاع خطر الاسلام عن اسبانيا جمعاء .

يوم قرطبة

بدأت مآتم القواعد الاندلسية بسقوط طليطلة (١٠٨٥ م) ،
ثم بسقوط سرقسطة (١١١٨ م) . وبعدها استخذت بطليوس للملك
لاون (١٢٣٠ م) . واليوم دور قرطبة ام العواصم ، وحاضرة
الاندلسيين في الغرب ، تخط الطريق لسقوط بلنسية (١٢٣٨ م) ،
واشبيلية (١٢٤٨ م) ، إلى ان يحين مآتم غرناطة آخر معقل عربي
في اسبانيا المسلمة ، فيغني الشاعر الاندلسي مرثاته الاخيرة ، يبكي بها
نعيم الفردوس المفقود .

وجاء دور قرطبة ، بعد ان مكثت خمسة قرون وربع قرن
في حوزة الاسلام ، ترتد المسيحية عن أبوابها ، وأمام حصونها
تتحل عزائم الاسبانيين . شهدت عز عبد الرحمن الناصر والحاجب
المنصور ، فكانت كالعروس ، حيناً بعد حين ، تجلى لتزف في زينتها

لنصر جديد . ما أكثر أعراس قرطبة ، وابهج أفراحها !
الملوك تأتيها خاضعة ، واليها ترسل الهدايا خاطبة ودها .
قوافل السبايا والغنائم معروضة في أسواقها ، يكاد لا ينقطع
النداء عليها .

قرطبة دار العلوم ، ومعهد الفنون والصنائع ، حرم الجامع الكبير
ذي السواري ، والدّة الزهراء ذات القصور والحدائق ، تشع أنوارها
على أروبة في دياجير القرون الوسطى ، هي الآن في ماتم بعد عرس
كما قال البحري في الايوان .

زالت عنها كلمة الموحدين بعد ان بات سلطانهم يتهاوى اثر
موقعة العقاب ، وراى عليها سلطان محمد بن هود ، من أعقاب
امراء سرقسطة السالفين ، يضم اليه معها مرسية (Murcie) ،
وجيآن ، وماردة (Mérida) ، وبطليوس ، متوسلاً بنقمة
الاندلسيين على الموحدين ، منادياً بكفرهم ، داعياً إلى مقاتلتهم قتال
الكفار ، وتخليص الاندلس من طغيانهم .

وتلقب بالمتوكل على الله ، ولبس السواد شعار العباسيين ،
معترفاً بخلافتهم ، راجعاً بامارته اليهم ، ليسترضي جمهور المسلمين بعد
خلعه خلافة المغاربة أهل التوحيد . فتجحت سياسته ، واقبل على
مبايعته وطاعته أكثر الولايات الاندلسية .

ولكنه كان مضطراً ، مع مغالبتة القوى الموحدة في دفاعها عن بقية سلطانها ، الى مقاومة الامراء المسيحيين ، وهم لا يفترون عن مناصبة الاندلس والافساد فيها . فلم يطق منع الفنس التاسع ملك لاون ان يفتح بطليوس وماردة وغيرها من المدن والحصون . الا انه تمكن من الايقاع بالموحدين ، يساعده على ذلك ما بينهم من شقاق ، إذ كان يتنازع الخلافة اميران منهم ، احدهما المامون من ولد يعقوب المنصور ، والآخر المعتصم بالله يحيى بن محمد الناصر .

كان ابن هود يناجز المامون ، ويعين عليه المعتصم احياناً ، حتى استطاع ان يستلب من يده حكم الاندلس بلداً بعد بلد ، وحصن غرناطة في الجملة (١٢٣٠ م) . فالجاء الى استعانة النصارى ، فعل المرابطين والامويين من قبل . فصار لدى خليفة الموحدين اثنا عشر الفا من مرتقة القشتاليين لحماية مراكش ورد المعتصم عنها . ونزل المامون للملك قشتالة ، مقابل هذا المدد ، عن بعض الحصون المتاخمة ورضي بأن تبني كنيسة في مراكش ، وان يؤذن للنصارى بقرع النواقيس . ووعد بأن يدفع عنهم كل مساءة في مملكته ، وإذا أسلم نصراني لا يقبل اسلامه ، وانما يقبل المسلم اذا ما احب ان يتنصر .

غير ان الحامية القشتالية لم تقو على منع المعتصم من افتتاح

مراكش ، وتهديم الكنيسة التي بنيت فيها ، وتقتيل النصارى ونهب أموالهم . وكان المأمون يومئذ في الاندلس ، وليس يسهل من مدنها الكبرى غير اشبيلية ، فعبر الزقاق يريد انقاذ عاصمة المغرب ، فلم يكتب له التوفيق في محاربة المعتصم ، فمات فجأة (١١٣٢ م) ، وبويع بعده ابنه أبو محمد عبد الواحد ، فتلعب بالرشيد . وتابع مسورة المعتصم ، الى ان توفي هذا بفاس (١٢٣٦ م) .

وانقطع ملك الموحيدين ، على اثر وفاة المأمون ، عن سائر الولايات الاندلسية خلا اشبيلية وما اليها . فعاد سلطات محمد بن هود يشعل مالقة (Malaga) والمرية (Almería) وغرناطة وقرطبة ومرسية ، ينافسه سلطان بني الاحمر في ارجونة (Arjona) ووادي آش (Guadix) وبياسة (Baéza) وجيان (Jaén) .

وبنو الاحمر قبيلة عربية ترفع نسبها الى الخزرج ، وعميدها محمد بن يوسف النصري . فاتفق هذا مع الاسبانيين على ان يمدوه بجيش لقتال ابن هود ، وان ينزل لهم عن بسائط الاندلس اذا استتب أمره فيها . فاغتتم هؤلاء الفرصة ، مستفيدين من خلاف الامراء المسلمين ، وانتفاض بعضهم على بعض ، فحشدوا جيوشهم ، وراح جايمة (Jayme) ملك أرغون يعيث في اماراة بلنسية ،

وفردينان ملك قشتالة ولاون يخبط بعساكره الى قرطبة . وكان هذا قد بلغ من القوة شيئاً عظيماً ، اذ تمكن ان يجمع قشتالة ولاون مملكة واحدة بعد تنازلهما ، لارتباط نسبه بملكهما ، وانتقال ارثهما اليه .

ذلك انه عندما توفي الفنس النبيل صاحب قشتالة ، صار الملك بعده الى ولده هنري ، وكان قاصراً ، فتولت الوصاية عليه اخته برنجاريا . ثم توفي سنة ١٢١٧ فانتقل العرش اليها عملاً بوصية والدها . وكانت تعلم ان القشتاليين يكرهون حكم النساء ، فلم تشا ان تترك الملك مزعزعا .

وكان لها اولاد من زوجها الفنس التاسع ملك لاون ، وقد طلقها هذا نزولاً عند امر البابا لما بينهما من قرابة مانعة ، الا ان الاولاد اعتبروا شرعيين . فاستدعت ابنها الاكبر فردينان وتنازلت له عن العرش ، فاغتبط القشتاليون لصنيعها ، وبايعوا الملك الجديد وقدموا له الطاعة (١٢١٧ م) . ولما توفي الفنس التاسع ملك لاون (١٢٣٠ م) تحول عرشه الى ولده فردينان الثالث ، فاتحدت قشتالة ولاون وزال ما بينهما من شقاق وخصام .

وخفق لواء الملك الجديد على دولتين قويتين ، تنضم اليهما امارات استرامادورة وجيليقية واشتوريش . فأصبح خطره عظيماً في غاراته على الاندلس الاسلامية ، واتجاه نظاره الى ام عواصمها

قرطبة ، بعدما تم له الاستيلاء على حصن ابدة (Ubéda)
(١٢٣٣ م) .

وكان المتوكل بن هود يزحف يومئذ إلى غرناطة ليحارب منافسه
ابن الأحمر ، فلم يفت الاسبانيين الذين كانوا في ابدة ان ينتهزوا
الفرصة ، وقد علموا من الأسرى المسلمين ان قرطبة قليلة أسباب
الدفاع ، وان افتتحها أمر ميسور . فادلجت منهم كوكبة صغيرة ،
يسترها ظلام الليل ، ويخفي حركاتها انهمار المطر ، حتى بلغوا
الضاحية الشرقية من عاصمة الروانيين .

وأرشدهم الأسرى الخائنون إلى المواقع التي يصلح منها الصعود
إلى السور . فنصبت السلالم ، وتسلق الجدران جماعة من الفرسان
الآباسل ، وكانوا قد استألوا بعض حراس الأبراج بالمال ، فكتموا
أمرهم عن الآخرين ، وأوهموهم ، عندما سمعوا خفق أقدامهم ، انهم
سرية آتية للتفتيش ، فخدعهم بذلك ، ومكنوا أعداءهم من دخول
أحد الأبراج ، فامتلكوه وقتلوا حراسه .

ثم انحدروا إلى باب قريب ، ففتحوه لرفاقهم ، فتسللوا منه إلى
أحياء الضاحية يفتكون بالسكان الأمنين فتكاً ذريعاً ، حتى تنفس
الصبح وانتشر الخبر ، فثارت الحامية في وجه المغامرين فقاتلتهم
حائقة ، وطردتهم من الشوارع ، وألجأتهم إلى التحصن بالبرج الذي
سقط في أيديهم .

فعلّموا ان محاولة افتتاح مدينة عظيمة كقرطبة ، بعدد قليل من الرجال ، ضرب من الجنون ، فهي من نفسها وحدها في جحفل لجب ، على حد تعبير أبي تمام . فارسلوا يستنجدون قائد منطقة قرطبة الفاييريز ذا كاسترو . وبعثوا رسولا إلى الملك فردينان في لاوت يسألونه الاسراع بالمجيء .

وما كاد يصل الرسول إلى القائد الاسباني ، حتى حف اليهم بما استطاع جمعه من حاميات الحصون والقلاع ، فأدركهم على عجل ، وثبت مقامهم في البرج يردون عنه المهاجمين ، ويشرفون على قسم من الضاحية ، إلى أن تأتيهم نجدة الملك وجيشه ...

ولم يكن فردينان يتوقع هذا التوفيق العجيب في قرطبة بكوكبة من الفرسان ، فبادر إليها بثلاثين فارساً ، بعدما أصدر أوامر بحشد العساكر من المدن والقرى ، واستدعاء جماعات الفرسان المنظمة ، وان يتبعه الحشد دون إبطاء .

ثم سارع بفرسانه الثلاثين إلى قرطبة ، فابتهج الجند لرؤيته ، واشتدت ظهورهم في مقاومة المسلمين . فأحس هؤلاء الخطر المهدد ، وتيقنوا انه إذا لم يتداركهم ابن هود بقواته ، دارت عليهم الليالي ، وآضت قاعدة الملوك في حوزة الأعداء . فطيروا الرسل إلى التوكل يستحثونه لاتقاذهم قبل فوات الأوان .

ولولا خور العزيمة ، وعقم في الرأي لكان بوسعه ان يتدارك العاصمة ، ويمنع استخذاءها . فالظاهر ان الانكسارات التي مني بها في محاربة المسيحيين ، وما ناله خصوصاً من فردينان الثالث ، أضعف همته ، وأوقع هيبة الاسبانيين في نفسه ، فلم يجرؤ على تلبية صوت قرطبة ، قبل أن يتبين قوة أعدائه ، ومبلغ ما جردوا لها من العساكر ، مع ان الموقف حرج ، فلا يحسن بأميرها ان يتركها لتلاقي وبائها ، وهو قريب منها ، ولديه جيش كبير يستطيع الدفاع عنها .

ولم يقتصر على تلكؤه الذميم ، بل قاده قصر الحيلة ، وسوء طالع الأندلس ، إلى أن يعهد في استطلاع أحوال العدو الى فارس جليقي اسمه سوارز ، كان الملك فردينان قد نفاه عن قشتالة ، فجاء برجاله إلى المتوكل ، وجعل سيفه في خدمته ، شأنه شأن كثير من الفرسان المسيحيين والمسلمين ، إذا خرجوا من بلادهم ناقلين على أمرائهم .

على ان هذا الفارس الجليقي لم يكن لينسى ان المهمة التي ندبه اليها ابن هود بكل سذاجة ، يتوقف عليها خذلان ملته ، وأبناء قومه ، فغلت في صدره عصبية الدين والوطن ، ورأى الحال مؤاتية لاسترضاء مليكه والرجوع الى أرضه . فوعد المتوكل بالخبر اليقين ، وسار إلى فردينان ، فأطلعه على واقع الأمر ، وطلب اليه ان يضاعف نيران الاحراس ليلا ليوم المسلمين بكثرة جيشه ، واتساع

المساحة التي يشغلها في نزوله .

ثم عاد الى ابن هود ، وطفق يبالغ له في وصف قوة العدو ،
وحسن سلاحه ، والخطر الذي ينتظره اذا حدثته النفس ببلقائه .
واراه بعينه اتساع نيران الحراسة وامتداد لظاها . فاستطير المتوكل ،
وداخله الذعر ، فخام ولم يجسر على الاقدام ، ونسي انه مسؤول عن
مصير ام المدائن .

وفيا هو على هذا الحال من الاضطراب جاءه رسول من أبي
جميل زيّان أمير بلنسية ، يستغيثه على جايم ملك أرغون . وكان
قد أناخ عليه بقواته ، فأثر ابن هود أن يدلف الى غوث بلنسية
لمعه ينقذها من الارغونيين ، فيضمها الى مملكته ، ويتقوى بها ،
ثم يرتد الى قرطبة ، فيخرج منها القشتاليين .

ولكن التقادير جرت بغير ما في الحسبان ، فإنه ما كاد يبلغ
المرية حتى اغتيل فات خنقاً ، ولم تنج بلنسية من يد ملك ارغون ،
وتركت قرطبة وحيدة ، تدافع بشهامة هجمات الأعداء ، وتلقى
الهلاك بأسلة لا تسلم إباءها للخنوع ، الى ان خاب أملها من المتوكل ،
وانقطع عنها رجاء كل نجدة ، فعلمت ان المقاومة أصبحت لا تجدي
فتيلاً ، وانما هي انتحار ليس غير ، فافضل ان تفاوض العدو ،
فعساها تنال منه شروطاً شريفة مقبولة .

بيد ان العدو كان شديد التعنت والاستكبار ، خصوصاً بعد ان صار النصر ملك يديه ، وزال خطر المتوكل عنه . فابى الا ان يسوم الاندلسيين ظلامه ، فاعطاهم الامان على نفوسهم دون املاكهم وأموالهم . فاضطر أهل قرطبة الى القبول مكرهين ، وفتحت المدينة الكبرى أبوابها للطافرين ، فدخلها فردينان الثالث ملك قشتالة ، لاون بفوارسه على اصوات الأبواق والطبول في ٢٩ حزيران سنة ١٢٣٦ م (٢٣ شوال ٦٣٣ هـ) ، بعد ان كابدت حصار ستة أشهر متواليات ، فسقطت بها أعظم قاعدة اندلسية في ايدي المسيحيين ، وخرج المسلمون منها منكسي الرؤوس ، متخليين عن أموالهم ، هاربين الى البقية الباقية من المدن الاسلامية في الاندلس .

ومشى الفاتحون الى المسجد الكبير يرتلون أناشيد الشكر ، فحولوه كنيسة ، ورفعوا الصليب عليه ، واقاموا فيه الصلوات والقدايس . وجيء بأجراس شنت يا قب الى فردينان ، وكانت لم تزل محفوظة من عهد الحاجب المنصور حين غزا مدينة القديس يعقوب (٩٩٧ م)^(١) . ودمرها ، وانترع اجراس كنيستها الشهيرة ، واجبر الاسرى المسيحيين ان يحملوها على عواتقهم الى قرطبة .

(١) راجع معارك العرب في الشرق والغرب ، ص ١٢٣ .

فأمر فردينان أن تعاد هذه الأجراس إلى كنيسة شنت ياقب ،
محمولة على اكتاف الأسرى المسلمين . فنقلت إلى موطنها بعد غربة
طويلة ، وحررت بعد أسر امتد نحو ثلاثين ومائتين من السنين .
فخرجت شنت ياقب للقاء أجراسها تحيط بحاملها مهللة مبهجة ؛
كما خرجت قرطبة بالأمس البعيد تستقبل هذه الأجراس على اكتاف
أصحابها ؛ وهي نشوى من خرة الظفر العابق . فأعاد التاريخ نفسه ؛
ولكن بصورة معكوسة . فسبحان مغير الأحوال .

فاجعة غرناطة

لم يبق في أيدي المسلمين من الاندلس العربية ؛ بعد انهيار دوله الموحدين ، ومقتل محمد بن هود . وسقوط قرطبة وبلنسية واشبيلية وسواها من المدن والقلاع ، الا مملكة غرناطة . ويشمل حكمها كورة البيرة (Elvira) ومنها قطر لوشه (Loja) على نهر غرناطة المعروف بنهر شنيل (Xenil) .

ومن اعمالها وادي آش (Guadix) والمنكب (Almunécar) وجبال البُشُرات (Alpujarras) وبسطة (Baza) . واشهر مدنها التجارية على ساحل البحر مالقة (Malaga) والمرية (Almería) .

ومع ان هذه الامارة صغيرة بمساحتها ، فقد تسنى لها أن

ترزق الحياة مدة مائتين وخمسين سنة ، على ما كان يحقد بها من خطر الدول المسيحية .

ذلك بأن الملوك الاسبانيين كانوا يشغلون عنها بمحاربة بعضهم لبعض : حروب كادت تستغرق النصف الثاني والنصف الاول من القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، لاسيما نضال قشتالة و ارغون .

ثم انهم تعودوا ان ينتفعوا من أموال المسلمين ، فكانوا يجدون لذة في ضرب الجزية عليهم واعتبارهم من اتباعهم ، كما كان الأمراء المسلمون يجدون هذه اللذة من قبل ، فقيضوا لفرنانطة عمراً مديداً ليمتعوا النفس باستصفائها والإشراف عليها .

اضف الى ذلك ان موقعها الطبيعي وما فيها من الحصون والقلاع والابراج ، يضمن لها ارهاق غزاتها . وهي على ضيق ارضها مكتظة بالسكان لان معظم المسلمين الذين هاجروا من الولايات الاندلسية التي استردها المسيحيون . لجأوا اليها واتخذوها مقراً . فلقيت فيهم عدداً عظيماً من المحاربين الأشداء يدافعون عنها الاسبانيين بحمية واستبسال .

فإذا تكالب العدو عليها وأحست الضنك استصرخت سلاطين المغرب ، وفي مقدمتهم بنو مرين ، فيجيزون اليها جيوشهم لرد

العاديات عن ارباضها .

فظلت هذه المملكة الصغيرة بأمن من الكارثة العظمى لا تخشى شرها . حتى تم الاتحاد بين قشتالة وارغون سنة ١٤٦٩ ، فتزوج فردينان الخامس ايزابيلا الكاثوليكية . واجتمعت دولتان قويتان على امارة بني الاحمر تصليانها الحرب العوان طوال عشر سنين .

ورافق ذلك تضعضع في احوال غرناطة من خلافتها الداخلي . وانقسامها احزاباً تحترب وتتصارع . ويفزع بعضها الى الملوك المسيحيين لمقاومة بعض . فهدوا السبيل للنيل منهم . وتغلب العدو على مدنهاهم وقلاعهم . فقد بات قصر الحمراء ملعباً لدسائس النساء ومكايدهن . فاشعل الثورات الاهلية ليستفيد منها الاسبان .

وكان من سوء الطالع أن يتولى أمر غرناطة السلطان أبو الحسن علي بن الأحمر ، رجل لذات وشهوات ، فاهمل رعاية الجيش ، وأقدم على قتل كبار القواد ليأمن انتقاضهم . فتراخت القوى العسكرية في الدولة ، وقل خطر حاميات الثغور .

ولم يقتصر على هذا بل سلم زمام الأحكام الى وزيره ، وقعد عن الجهاد ، حاسباً ان النصارى لا يغزونه ، ولا تنقض بينهم الفتنة .

واحتجب في قصره عن الناس ليتفرغ لنسائه وملاهيته .

فأنكر الخاصة والعامة ذلك منه ، وكثرت المظالم والمغارم على حد تعبير المقرئ . فإذا الثورة تتمخض في شعبه ، فتنتقض مألقة على حكمه ، وتبايع أخاه أبا عبدالله محمداً الملقب بالزغل ، فتتشب الفتنة بين الأخوين مدة ، ثم يخضع الزغل لأخيه ، وينقضي الخلاف ، ليقع بعده خلاف جديد أشد منه وأنكر ، بين الابن وأبيه .

وذلك ان ابا الحسن في تهافته على اللذة كان يكثر من التسري بالجواري ، لطيب له الاستمتاع . فوقع على جارية اسبانية اسمها إيزابيلا ، فشغف بها شغفا عظيماً ، واستولت على إرادته ، فحملته على ان يتزوجها ، واسلمت فسميت الثريا ، فأحلها المنزلة الأولى بين نسائه حتى انه قدمها على زوجه عائشة ، وهي بنت عمه السلطان ابي عبدالله الأيسر .

وشاء ان يجعل ولاية العهد لبعض أولادها ، فاشتعلت الغيرة في صدر عائشة ، وراحت تدس للثريا ، وتنصب لها أشرار مكايدها ، فانقسم خدام القصر على فئتين متنافرتين ، تميل الواحدة الى اولاد الحرة ، والأخرى الى أولاد الجارية . والشعب خارج القصر يتذمر على الوزير لجوره واستبداده ، يطلب اقصاءه عن الحكم ، والسلطان

لا يلي له طلباً .

ولم تكن هذه الأحداث لتخفى على ملكي قشتالة وارجون ، او يفوتهما استغلاهما ، وهما في زواجهما واتحادهما ، قررا ان يزيلا باقي كلمة الاسلام عن اسبانية .

وكان السلطان أبو الحسن قد استفزهما للجهاد في اعتدائه على الزهراء سنة ١٤٧٨ ، وهي تابعة للملكة قشتالة ، فحرضت بعلمها على تجريد حملة صليبية ، لا تتثنى إلا باخراج المسلمين من الأندلس . فتم تجهيزها سنة ١٤٨٢ م (٨٨٧ هـ) فراحت توالي الفارات على مملكة غرناطة ، تفتتحها بلداً اثر بلد ، وتستزل الحصون أو تقذفها بالمدافع .

وفي هذه السنة فرت عائشة من الحمراء ، ومعها ولداها أبو عبدالله محمد وأبو الحجاج يوسف ، خوفاً من زوجها ان يفتك بهم نزولاً على رغبة حظيته الاسبانية . فقصدوا إلى وادي آش يستثيرون الشعب ، وهو في جلته . ناقم على أبي الحسن بمقت استهتاره وقعوده ، فد اليهم يده وبائع أبا عبدالله خالماً أباه . ثم قامت المرية وبسطة وغرناطة بدعوة السلطان الجديد ، فهرب أبو الحسن إلى مائقة ملتجئاً إلى أخيه الزغل ، فاعصوب الشرابين حزب أبي عبدالله وحزب أبي الحسن ، وفيهم الثغريون . (سكان

الثغر) وبنو سراج .

فقد انتصر الأولون لأبي الحسن ، والآخرون لأبي عبدالله ، فكانوا يقتتلون في الشوارع والطرق حتى تركوا الفوضى منتشرة في البلاد . وتزعم الرواية العربية ان ابا عبدالله نكب بني سراج وافنأهم ، على ان المستشرقين أوغست مولر وكليان هيوار يضيفان هذه النبكة ، ان صحت أخبارها ، الى ابي الحسن ، لان بني سراج كانوا خصومه وانصار ولده ، فلا يعقل ان ينكبهم ابو عبدالله ، ولعل الرواية العربية تخلط بينه وبين عمه ابي عبدالله الزغل . وعلى حوادث هذه النبكة بنى شاتوبريان قصته : آخر بني سراج .

وما زالت الحرب دائرة بين الابن وأبيه حتى رجحت كفة الولد ، فاقام سريره في غرناطة ، وأطاعته البلاد إلا مالقة والناحية الغربية .

وفي سنة ١٤٨٣ م (٨٨٨ هـ) قصد المسيحيون مالقة وبلش (Velez) في نحو ثمانية آلاف . وكان السلطان أبو الحسن قد أناخ على نواحي المنكب لمقاتلة ولده ، فالتقاه أبو عبدالله في جند غرناطة والجهة الشرقية فهزمه ، في حين كان الزغل يقاوم الجيوش الأسبانية في مالقة ، ويردها خاسرة .

فلما بلغ أبا عبدالله أن عمه الزغل انتصر على الاسبانين في مالقة ، أحب أن يكون له قسط من الجهاد الوطني والديني فحشد عساكره وخرج غازياً ، فتجمع عليه الاسبان في الجبال والأوعار ، فكسروه وأخذوه أسيراً بعد أن قتلوا من الجيش خلقاً عظيماً . فاجمع أمراء غرناطة وأعيان الاندلس على ارجاع والده ابي الحسن ، فذهبوا إلى مالقة وبايعوه .

وكان قد ذهب بصره ، على أثر مرض يشبه الصرع أصابه . فرفض أن يقوم بأعباء الملك وهو على هذه الحال ، وأشار عليهم بأن يبايعوا أخاه أبا عبدالله الزغل ، فبايعه الأندلسيون وقدموا له الطاعة . وانتقل أبو الحسن إلى المنكب فاقام بها إلى أن مات .

وأغار المسيحيون سنة ١٤٨٥ م (٨٩٠ هـ) على غربي مالقة فدخل أهلها في طاعتهم . وحاصروا بعدها رندة (Ronda) فهدموا أسوارها بدافعهم ، وما انفكوا يضيّقون عليها حتى طلب أهلها الامان مستسلمين .

ثم ان فردينانت رأى ان يضرب المسلمين بعضهم ببعض ، فيستفيد من شقاقهم وتحاربهم ، فبعث إلى السلطان ابي عبدالله ، وهو أسير عنده ، فاستقدمه وخلع عليه ، ووعدته بأن يساعده

على خلع عمه، ويعيده إلى عرشه. ثم أطلق سراحه وأمده بالعساكر والمال، فثار يطلب الملك .

وجاء بلش فاطاعه أهلها ، ونادى الخبر الى غرناطة فال الى مبايعته اهل البيّازين (Albaycin) وهو حي من أقدم احياء غرناطة . قائم في اعاليتها على تل منحدر يشرف على المدينة ، بينه وبين التل الذي عليه قصر الحمراء فرجة صخرية .

وفي البيازين قلعة حصينة تعرف بالقصبة القديمة . وكان أهل هذا الحي على جانب من الجهل ، كما يصفهم صاحب نفح الطيب ، فقاموا بدعوة ابي عبدالله ، وتبعهم . بعض اهل غرناطة ، وهم يرجون الصلح مع المسيحيين على يد السلطان الأسير ، لما رأوا من عطف القشتاليين عليه . فوقعت الفتنة بين المسلمين وُرجمت البيازين بالحجارة من القلعة .

ثم جاء السلطان ابو عبدالله إلى لوشة ، فظنوا انه اتى لمصلحة عمه الزغل . واذا صاحب قشتالة وارغون يدم لوشة بجيش عظيم فيحاصرها . فخف اهل البيازين الى نصرة السلطان ابي عبدالله ، ولكنهم ما لبثوا ان تبين لهم ان السلطان كان على اتفاق مع الملك الاسباني ، ففتحت لوشة أبوابها لفردينان (٨٩١ هـ) وهاجر اكثر اهلها الى غرناطة .

اما أبو عبدالله فبقي فيها مع الاسبانيين ، فاثبت بذلك شائعة
مواطنته لهم . وحقيقة الأمر انه ما حالقهم الا لاعتقاده انهم
سيكونون انصاره على عمه فيستعيد منه العرش وان المسلمين
يأمنون اعتداءهم في ظل ملكه لارتباطه بالصدقة معهم ،
خصوصاً بعدما وعده فردينان بأن من يدخل في حكمه فهو في
أمان تام .

وعلى ذلك نشط إلى بلش يدعو الناس لموالاته ويمتنيهم بصلح
صحيح ، فاقبل عليه جمع غفير ممن رغبوا في السلامة وكره
القتال ، وجاءه في الجملة أهل البيازين يدعونه إلى حبيهم ، متجندين
لنصرته والدفاع عنه ، فانتقل اليهم على حين غفلة ، ونزل في
القلعة فانقسمت غرناطة قسمين ، حزباً معه وحزباً مع عمه
نزير الحمراء .

ولم يغفل ملكا قشتالة وارغون عن امداده بالجند والمال
والقمح والبارود ، فشبت في غرناطة ثورة اهلية كثر فيها النهب
والتقتيل .

وفيا كان السلطان الزغل يدعو الأجناد والقواد من أهل
بسطة ووادي آش والمرية والمنكب لمساعدته وطرده أبي عبدالله من
البيازين ، بلغه ان الاسبانيين زحفوا إلى مالقة بجيش عظيم ،

وتزلوا على بلش يحاصرونها في آذار ١٤٥٧ م (ربيع الآخر ٨٩٢ هـ)
فخف إلى نجدتها بما اجتمع لديه من وفود وادي آش ورجال
البشرات ، فرأى العدو يوائها برأ وبجراً ، وقد أخذ بخناقها من
جميع الجهات .

فوطّن النية على منازلته مها كلف الأمر . وإذا نبأ يأتيه
من غرناطة بأن العاصمة بايعت ابن أخيه أبا عبدالله ، وإن هذا
الأمير استولى على قصر الحمراء ، فأنكسرت عزيمته ، وانهمز
بجيشه قبل أن يلتحم مع الاسبانيين ، وسار إلى وادي آش فتزها
وتحصن بها .

وما زال الاسبانيون يشددون الحصار على بلش حتى طلب
أهلها الامان ، ودانت لهم جميع البلاد بشرقي مالقة إلا جبل
فارة (Gibralfars) حصن مالقة المنيع ، فانه لبث يدعو للزغل
ويدافع الأعداء متمرداً ، ومالقة أعظم فرضة تجارية حربية على
باب المضيق ، تأتيها الامدادات من المغرب ، تنزل بها ثم تنتقل إلى
غرناطة .

فكان من المعقول أن يوجه إليها فردينان حملته ويفرغ منها
قبل مهاجمة العاصمة ليقطع الصلة بينها وبين العدو المغربية .
فسير إليها جيشاً برياً واسطولاً بحرياً يضربان عليها نطقاً

عسيراً . فقاتل أهلها قتالاً مجيداً ، وسلط الحصن مدافعه على
البر والبحر ، فمضى الأسبانيون بخسائر جسيمة .

غير أنهم لم يحجموا عنها ، ولا فتر لهم نشاط ، بل لبثوا
يقتحمون إليها المخاطر حتى دخلوا أرباضها وضيقوا دائرة الحصار
وصاروا يقذفون عليها قنابلهم من مسافات قريبة ، فيدمرون
الحصون والمنازل .

فصبرت مألقة صبر الكرام على التقتيل والتخريب ، وانقطاع
الأمم من مساعدة سلاطين المغرب إلى أن فني ما عندها من
الطعام وأكلت الخير والحير ، فعضها الجوع المرير ، وغلب عليها
اليأس القاتل ، فاضطرت مكرهة إلى الاستخذاء بعد منعتهما ،
فدخلها المسيحيون في آب ١٤٨٧ م (شعبان ٨٩٢ هـ) وسقط في
أيديهم حصنها المرید .

وتابع فردينان غاراته كل سنة ، فكان يفتتح المدن والقلاع
وهو يظهر الصداقة لأبي عبدالله صاحب الحمراء ، ويدعي مناصرته
على عمه ومنافسه في الملك ، وإنما وكده أن يعزل غرناطة عن
جميع المدن والولايات الإسلامية ، فيسهل عليه امتلاكها إذا حاصرها
ويحول دون وصول النجيدات إليها .

ولا يخفى ما في هذه الخطة من دهاء وحسن تدبير . فلما

كانت سنة ١٤٨٩ م (٨٩٤ هـ) . نهد بجيشه إلى بسطة يريد انتزاعها من الزغل ، فحشد السلطان الجيوش من وادي آش والمرية والمنكب والبشرات ، فوقعت بينهم معارك كثيرة كان النصر فيها للاسبانيين . وتضايق أهل بسطة من الحصار والجوع ، فطلبوا الأمان ، وخضع الزغل لفرديتان وبيع له على أن يبقى تحت طاعته .

فدخل الاسبان بسطة في كانون الأول ١٤٨٩ م (محرم ٨٩٥ هـ) وأقاموا في كل قلعة قائداً مسيحياً . ودانت لهم وادي آش والمنكب والمرية ، وتم لفرديتان ما أراده ، ولم يبق خارجاً عن حكمه سوى غرناطة وقراها وجبال البشرات . فعندئذ تبذلت سياسته نحو صاحب الحمراء ، ف أظهر الميل لأبي عبدالله الزغل ، ودعا الناس إلى الالتفاف حوله ، وبذل المال لبعض القواد المسلمين فباعوه ضمائرهم ، وجعلوا رجالهم في خدمته توفيراً لرجالهم .

فسقطت أمام وجهه جميع الحواجز التي كانت تعوق زحفه إلى غرناطة ، فكتب إلى صاحبها يستنزله عنها ، واعدأ إياه بأن يضعه تحت حمايته ، ويعطيه مالا جزيلا . ولكنه لم ينتظر الجواب بل دلف إليه بعساكره لينجز الأمر سريعا .

فجمع أبو عبدالله أعيان المدينة وقوادها ، ومندوبين من

عامّة الشعب ، وأطلعه على كتاب فردينان ، طالباً منهم أن يبدوا آراءهم في الجواب عليه ، فاما ان يرغبوا في الجهاد والدفاع عن دينهم واستقلالهم ، واما أن ينزلوا على حكم المسيحيين .

فاتفقوا بأجمعهم على الجهاد المستميت . فأرسل الى فردينان يبلغه رفض طلبه والاستعداد لقتاله .

فمضى الملك الاسباني الى مرج غرناطة فاحتله بجيشه ، وبعث الى سكان العاصمة يهددهم بافساد زروعهم ، اذا أصروا على مخالفته ، فلم يجد عندهم غير الصلابة والاباء . فانتسف الزرع كله ، وهدم بعض الحصون ، الا انه أحجم عن ضرب الحصار لقلة في الذخيرة والجنود ، وآثر ان يرتحل الى بلاده ، مرجئاً أمر غرناطة ليوم آخر .

وما كاد يبتعد حتى عادت بعض الجهات الى طاعة صاحب الحمراء ومنها جبال البشترات . وكان الزغل قد استقر بالمرية ، فدلف اليه ابن اخيه بحملة من غرناطة ليسترد الأماكن التي سلمها للعدو ، فتلقاه عمه بجيش فيه قوات من النصارى الاسبانيين ، فنشبت بينهما معارك دامية لم يترجح النصر فيها لأحد منهما .

وفي أثناءها خرج فردينان بجيش انضم اليه المدجنون^(١) والخابئة والمرتدون^(٢)، فقصدا الى وادي آش وأجلى عنها المسلمين . فلما بلغ خبره السلطان الزغل ، خاف على نفسه لمصادقته الاسبانيين وهم اليوم ينفون أبناء ملته عن ديارهم ، فكره البقاء في الأندلس ، فعبر البحر الى وهران ، ثم الى تلمسان ، واستقر بها بعيداً عن عرشه وسلطانه .

وعاد ابو عبدالله الى غرناطة يتأهب للقاء العدو بعد ان اصبحت العاصمة الهدف الوحيد لأنظار ايزابلا وفردينان ، وهيهات ، لا يطمئن لها فتح ما دام المسلمون معتصمين بالحرء . فيكفي ان يقع من الحوادث الداخلية ما يشغلها حيناً عن الولايات المفتوحة حتى تنتقض عليها ، وتعود منضمة الى غرناطة ، ناشدة حريتها واستقلالها ، فلا الفتح مكفولاً ولا النصر سالماً ، او يندك المعقل الأخير لدولة الاسلام في الأندلس .

وعلى هذا ، صمم العاهلان أن يضربا الضربة الحاسمة ما دام الزمان مؤاتياً ، فيأمننا من مفاجآت الغد . فنهضا الى حشد العساكر من قشتالة وارغون ولاون وجليقية واشتوريش وسواها ، فتم لهما

(١) هم المسلمون الذين يعيشون في بلاد النصارى ولهم عليهم حق الحماية والذمة .

(٢) المرتدون : النصارى الذين اسلموا ثم ارتدوا الى النصرانية .

جيش لهم ، فيه زهرة الفروسية الاسبانية ، يترأس أقسامه الأبحار والقوامس ، وتنتشر فوقه رايات الصليب والصور المقدسة ، ومعه من المؤن والمدافع والسلاح مقادير عظيمة تنذر بحرب ضروس لا هوادة فيها .

وكان فردينان وايزابلا يقودان هذه الجيوش بنفسيهما ، ويتعهدان سيرها وتزولها . فزحفا بها في آذار ١٤٩١ م (جمادي الآخرة ٨٩٦ هـ) الى مرج غرناطة الجنوبي (La Véga) ونصبا آلات الحصار على العاصمة ، وقذفا حصونها بالمدافع ، ولكنها كانت منيعة ، فلم يهن جانبها ولا تثلث أبراجها .

فعلم الاسبانيون ان الحصار طويل لا ينقضي أمده الا بعناء شهور . فأمرت ايزابلا ببناء مدينة مقابل غرناطة تناوئها مدة الحرب الى ان تظفر الواحدة بالأخرى . وهذه الخطة اخذها الاسبانيون عن العرب عندما يطول الحصار . فبنيت المدينة وسُميت شنتفي (Santa - Fé) اي الايمان المقدس ، فترلتها العساكر الاسبانية مستظلة بحصونها ، فكان في ذلك بلاغ للفرناطين بان هذه الحملة تختلف عن الغارات السابقة ، فما تنتهي باتلاف الزرع وامتلاك بعض الحصون .

فوطنوا النفس على الصبر والجلاد ، ووقف القواد والاشراف

بجانب السلطان ابي عبدالله يشددون عزيمته ، ويدعونه الى الثبات ،
فصبرت غرناطة على الحصار وقصف المدافع ، رابطة الجاش ،
عنيده المراس .

غير ان الميرة عندها لم تكن تكفيها سوى مدة قصيرة ،
والحصار الخائق يمنع الوارد اليها من الخارج ، وليس لها باب مفتوح
الا من ناحية جبل شلير (Séerra Nivada) الى البشرات تأتيها
منه المؤونة رشحاً لوعورة المسالك . فكان الضيق يدفع اهلها حيناً
بعد آخر الى ترك الاسوار والحصون لمنازلة العدو فتقع معارك
دامية يستبسلون فيها مقاتلين قتال الضواري ، فيسيل مرج غرناطة
نماء ، ويكتسي بالجثث والهوام .

وكانت ايزابلا تتعهد الجرحى الاسبانيين بنفسها ، تؤاسيهم
وتضمد كلومهم ، وتحث الاجناد على الصبر وحسن البلاء . فتوالت
المعارك بين الفريقين رابية الخسائر ، والزاد والرجال في غرناطة
قليل ، والعدو وافر العدد والذخائر ، فلا بد ان يفضي الأمر الى
معركة فاصلة تنكسر فيها شوكة الغرناطيين ، ويستطيل عليهم
الاسبان بقواتهم الجرارة ، فيضطرونهم الى الانقباض وراء الأسوار
لا يجرؤون بعدها على طلب القتال . فيعود الحصار باثقاله ويشد
الجوع على المسلمين ، فيزداد العدو طمعاً فيهم ، ويفر من المدينة
خلق الى جبال البشرات .

فدعا السلطان ابو عبدالله رجال الدولة وأهل المشورة ،
يستطلع آراءهم فيما ينبغي عمله ، فاتفقوا على اسلام البلد حفاظاً على
النفوس ان تهلك حيث لا يجدي الهلاك . فاختاروا وفداً من رؤساء
الجند للمفاوضة ، فخرجوا الى معسكر الاسبانيين ، فاستقبلهم
فردينان وايزابلا بحفاوة ، فعرضوا عليهما اسلام العاصمة على
شروط فيها الامان للمسلمين . فقبل العاهلان دون تردد ان تفتح
المدينة ابوابها صلحاً ، ووضعت معاهدة الاستسلام وهي تتضمن سبعة
وستين شرطاً على قول المقرري .

ومن النظر إلى هذه الشروط يتبين ان المسلمين فاضوا
أعدائهم مفاوضة الند للند لا مفاوضة المغلوب للغالب ، وان العاهلين
الاسبانيين كانوا متساهلين إلى حد بعيد تخلصاً من هذه الحرب
الطويلة ، ووصولاً إلى الغاية التي يتوخاها .

ولعل فردينان كان يضر وراء هذا السخاء خطة معينة ينوي
تنفيذها عندما يصبح أمر غرناطة في يده ، وتسرح جنود المسلمين ،
وتؤخذ منها قلاعها . فقد جاءت شروط المعاهدة في مصلحة
المنكسرين أكثر منها في مصلحة الظافرين .

ولا يرجو مقهور ان ينال من قاهره شروطاً شريفة افضل
منها . تصون حرية الدين وحرية النفوس معاً . فهي تنص من

الناحية الدينية على انه : لا يجوز للجنود المسيحيين أن يدخلوا المساجد إلا بأذن من الفقهاء ، وتبقى المساجد والاقواق كما كانت . ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم عن أموره الدينية . وكل مسيحي يضحك منهم في أثناء إقامة شعائرهم يعاقب .

لا يقصر من اسلم من النصارى على الرجوع الى دينه ، وأما من تنصر من المسلمين فانه يوقف اياماً حتى يظهر حاله ، ويُحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى ، فإن أبى الرجوع الى الاسلام يترك على ما اراد .

وتنص من ناحية أخرى على حماية النفوس والعادات والمنازل والأموال ، فلا يجوز للعساكر المسيحية ان تدخل بيوت المسلمين ولا تاخذ منها طيورها ومواشيها ، أو تقيم فيها الولائم والمراقص على كره من سكانها .

ولا يسمح للجنود الاسبانيين بأن يصعدوا إلى السور الذي يفصل القلعة عن البيّازين لئلا يستطلعوا على دور المسلمين . ولا تخترق القوات المسيحية مدينة غرناطة يوم دخول العاهلين إلى الحمراء ، وإنما تسير في طريق منحرف خارج الأسوار مراعاة لشعور الغرناطيين .

ومن هرب من اسارى المسلمين ودخل غرناطة فلا سبيل عليه

لمالكه ولا لسواه . ولا يعاقب من قتل نصرانياً أيام الحرب ولا
ترد منه الأسلاب التي غنمها ، ولا يؤخذ أحد بذنب غيره .
ويختار المسلم في البقاء او في السفر إلى المغرب وافريقية ، فمن
آثر البقاء ، ورضي ان يكون من رعايا صاحبي السمو الملكي ،
يبقى له سكنه وماله وعقاره ، ولا يؤدي من المغارم
زيادة على ما كان يؤديه للأمراء المسلمين ، وترفع عنه جميع
المغارم والمظالم المحدثه ، ويسير في بلاد النصارى آمناً في
نفسه وماله ، ولا يجعل علامة يعرف بها كما يجعل اليهود
والمدجنون .

ولا يحكم على أحد منهم إلا بشريعتهم لدى قضاتهم ، ولا يولى
عليهم نصراني أو يهودي . ويحق للتجار المسلمين ان يسافروا
ويعودوا متمتعين بالحرية والطمأنينة ، فيمكنهم ان يعبروا بتجاراتهم
إلى افريقية كلها ، وان يتنقلوا في جميع الولايات الخاضعة لصاحبي
السمو ، ولا يؤدون من المكوس زيادة على ما يؤديه التجار
المسيحيون .

ويجب ان تكون اسواق المسيحيين ومجازرهم منفصلة عن
أسواق المسلمين ومجازرهم لكي لا يحصل اختلاط في البضائع
واللحوم .

ويستقل المسلمون بمياهم وأنابيههم ، فلا يحق للمسيحيين ان يشربوا منها أو يغسلوا بها ثيابهم . وإن صاحبي السمو وقوادها الأكارم يراعون المسلمين ، ويعاملونهم معاملة الأتباع الأوفياء .

أما من أثر الهجرة على البقاء فلا يمنع ، وتنقله إلى العدو الافريقية ، في مدة معينة ، مراكب صاحبي السمو ، ولا يلزمه إلا الكراء ، ويحق له ان يأخذ معه جميع أمواله : ذهبه وفضته وحلاه ، وبضاعته وسلاحه ، ما عدا الأسلحة النارية .

ومن يتأخر عن السفر في المدة المعينة ، يعطى عندما يسافر عشر ماله والكراء . وإذا لم يطب المقام للمسلم الاتدلسي في المغرب وافريقية ، وأحب العودة إلى غرناطة ، يسمح له بذلك في مدة ثلاث سنوات من سفره ، ويحق له أن يتمتع بجميع الذمم التي تنص عليها المعاهدة .

ويشترط العاهلان الاسبانيان مقابل ذلك ان يشتغل ابو عبدالله سلطان المسلمين بأهله وحرسه من الحمراء إلى البشرات ، وتكون سكناه باندرش (Andaraxe) ، وان يُستوثق خمس مائة من أعيان غرناطة رهناً حذار الغدر والعصيان .

وخطّ فردينان وايزابلا اسميهما تحت هذا القسم :

« نؤكد ونقسم بإيماننا وكلامنا الملوكي أننا نحافظ ونأمر بالمحافظة على مضمون جميع ما هنا من كل شيء وكل جزء ، الآن وفيما بعد ، الآن وفي كل آن . »

وأبرم الشروط بعدها أبو عبدالله وزعماء المسلمين ، فتوقفت الأعمال الحربية في كانون الأول سنة ١٤٩١ م (صفر ٨٩٧ هـ) . وفي اليوم الثاني من كانون الثاني ١٤٩٢ م (٢ ربيع الأول ٨٩٧ هـ) فتحت غرناطة أبوابها فدخلها صباحاً فردينان الخامس وإيزابلا الكاثوليكية بموكب حافل ، فسارا تَوّاً الى الحمراء .

وكان قائد القلعة ينتظرهما على عتبة الباب فقدم لهما المفاتيح ، فسماها للكونت تنديلا (Tendilla) وجعله قائداً عاماً للمملكة غرناطة . ثم رفع الصليب الفضي وعلم قشتالة على برج فيسلة (La Vela) أعظم أبراج الحمراء ، واحتلت رجالة الجنود الإسبانية جميع الأسوار والبروج .

وكان السلطان أبو عبدالله قد غادر القلعة قبل دخولهما العاصمة فاجتاز ساحة الاسود كسيراً منخلع الفؤاد ، يسير مطرقاً الى منفاه وبجانبه أمه عائشة صامته ، قاطبة ، والناس وقوف في الشوارع والشرف يشيعونه بانظارهم منقبضين ، من بين راحم وناقم ، حتى إذا انعطفت به الطريق ، وكادت الحمراء تتوارى عنه ، أرسل اليها

النظرة الأخيرة ، وهطلت عيناه بالدموع . فالتفتت اليه أمه وقالت له بمرارة الشامت المتالم :

إبكِ مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال

ولا يزال هذا الموضع يسمى الى اليوم « زفرة المغربي » .

واقام أبو عبدالله بأندرش الى سنة ١٤٩٢ م (٨٩٨ هـ) ، ثم عبر البحر الى المغرب ونزل بفاس فاتخذها مقراً حتى مات .

خلت غرناطة من ملوكها بني الأحمر ولكنها بقيت آهلة بالمسلمين ، يزاولون فيها أعمالهم مطمئنين الى عهد فردينان ، حاسبين ان الاسبان مقيمون عليه طويلاً لا ينقضون شروطه ، فيتسنى لهم مع الزمن ان يجددوا قوامهم ، ويستأنفوا جهادهم لاسترداد سابق عزم وسلطانهم . فاذا كان ما نالهم من ذل وانكسار عقاباً سماوياً على آثام اقترفوها ، او اقترفها حكامهم وزعمائهم ، فلن يتخلى الله عنهم ، فيأذن ببقائهم خاضعين لحكم النصارى ، والنبوات التي يسمعونها من أفواه الذين يقال ان لهم زلفى عند الله . تبعث في نفوسهم أملاً حياً وتبشر بقرب الخلاص ، وانتهاء العقاب .

ومها تكن شروط العهد سخية شريفة فهي لا تعدو ان تكون شروط الغالب على المغلوب ، تطالعه أبداً بزوال دولته ، ووجوب خضوعه للسيطر الغريب . وما تعودوا من قبل ان يخضعوا الا

لأبناء ملتهم، بل كانوا يتبرمون بحكم سلاطين المغرب ، ويعتبرونهم دخلاء عليهم ، مع انهم مسلمون ويتكلمون العربية ، فكيف يرضون حكم الاسبانيين وهم غرباء عنهم في الدين والجنس واللسان . فلماذا لا يسمعون بكل ما لديهم من الوسائل لتحطيم هذا النير الثقيل ؟ فعهد فردينان قد ترك لهم الحرية في السفر الى الأمصار الافريقية ، لتعاطي التجارة ، فبوسعهم ان يتصلوا بسلاطينها ، ويحرضوهم على تجريد حملة قوية تنقذ الأندلس المسلمة .

وما يمنهم ان يستنجدوا المماليك في مصر ، أو يفزعوا الى الدولة العثمانية وهي في فتوتها ونشاطها ، وابان مطامعها . ممالك اوروبة تداريها وتخشاها بعد ان واثاها الحظ ، فافتتحت القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، وجعلتها قاعدة لها ، فجثمت على الشاطئين ، بيدها مفاتيح الشرق والغرب .

دولة مسلمة مكيئة العقيدة ، تطمح الى الخلافة لتصبح باسم الشرع حامية الاسلام ، فلا بدع ان يجد الاندلسيون عندها عطفاً وتشجيعاً كما وجدوا عند سلاطين المغرب وافريقية ومصر ، فتصبح بعد ذلك شواطئ الأندلس غرضاً لغارات القرصان المسلمين يعيشون فيها وينشرون الذعر والاضطراب . فكانت هذه الغارات كافية لتحريك الأندلسيين مع انتظارهم القوة التي وعدت افريقية بارسالها ، وهم لا تنقصهم الشجاعة ، ولا العصبية الدينية ، ولا كره

الغريب البغيض . ومن جملة تساهل العهد معهم ان ترك لهم اسلحتهم فكانه . أعدهم للقيام بالثورة ، ولاسيا سكان الجبال الوعرة كالبحرات .

ولم يكن المسلمون منحصرين في غرناطة وحدها ، بل ظلت سائر الولايات الاسبانية حافلة بهم بعدما استردها المسيحيون ، فان فردينان رأى من الخير ان يستبقهم ويعطيهم ذمة المدجنين ، لئلا ينقص عدد السكان فتتأثر التجارة والزراعة . فوجود هؤلاء في قلب اسبانية أشبه شيء بقوة خفية ماثلة تعتمد عليها غرناطة اذا هبت ثائرة . وغير مستصعب عليهم ان يتفاوضوا ويتفاهموا ليجمعوا أمرهم على خطة يضعونها مادام التاجر الغرناطي يحق له كالتاجر الاسباني ، ان يتردد في مملكتي قشتالة وأرغون . فلم يمض على العهد بضع سنوات حتى أخذ الجبليون ينتقضون ويشورون ، وبدأت قشتالة تفكر بإلغاء العهد او تعديل شروطه .

والظاهر ان أول فكرة خطرت لها حفاظاً على الأمن ، وتحقيقاً للوحدة القومية ، هي تنصير المسلمين وتعليمهم لغة البلاد وعاداتها لأن الاسبانيين اعتقدوا ان هذا الشعب الغريب لن يندمج فيهم ما دام متمسكاً بدينه وعاداته ولغته ، ولعل تساهلهم في شروط العهد كان ترغيباً له في الحكم الاسباني الى أن يتمكنوا من تنصيره أو تنصير أولاده على تنادي الزمن .

وقد عبر عن هذه الفكرة رئيس أساقفة غرناطة الـدون فرنانـدو دو تـالافيرا (Fernando de Talavera) فطلب عند وضع المعاهدة ان تحسن معاملة الغرناطيين ، وان يجعل التساهل أساساً لشروطها على امل ان يقبلوا الديانة المسيحية في المستقبل . وقال في ذلك كلمته الماثورة : « هؤلاء اولاد ينبغي ان نغذيهم باللبن . »

وقد كان من الطبيعي أن يُترك أمر تنصيرهم على عهدة الأيام والليالي ، الا ان الخوف من الثورات التي طفقت تهدد اسبانية ، والحملات التي ينتظر ان تأتيها من افريقية ، حمل فردينان على اتخاذ تدابير قاسية في حد ذاتها ، فأصدر أمره سنة ١٤٩٩ م (٩٠٤ هـ) ، بتنصير المسلمين جميعاً ، وارجاع من اسلم من النصارى الى دينه القديم ، وكل من رفض التنصر يجبر على مهاجرة البلاد .

فأحدث هذا القرار اضطراباً عظيماً في غرناطة والبشرات ، وهب أهل البيــازين في وجه الحكام فقتلهم ، وكتبوا الى الملك الظاهر قنسو الثاني سلطان مصر مستغيثين ، فبعث هذا الى الملكين الاسبانيين يهددهما بالانتقام من المسيحيين الذين في أرضه ، فاضطرا الى أن يوفدا مرشد كاتدرائية غرناطة بطرس مارتير ليوضح له حقيقة الأمر ويطلعه على الرسائل التي تلقتها حكومة قشتالة من سلطات المدن البحرية في افريقية ، تؤكد فيها أن المبعدين لا قوا من الاسبانيين أحسن معاملة .

واستطاع العاهلان في الوقت نفسه أن يخمدا ثورة الجبليين ، ويكرها المسلمين على التنصر ، ولا سيما القتيان والفتيات فان التنصر كان شاملا فيهم . وآثر جماعة أن لا ينزلوا عن دينهم ، فرحلوا إلى المغرب في مدة ثلاثة أشهر تاركين أملاكهم للدولة .

قال صاحب نفح الطيب ، « وبالجمل فأنهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة ، وامتنع قوم من التنصر ورغبوا في الثورة ، فاستأصلهم الاسبان سبياً وقتلاً ، ومنهم من خرجوا على الامان الى العدو المغربي . »

ولكن فاجعة المسلمين المتنصرين (Morisques) لم تقف عند هذا الحد ، ذلك بأن العدد الأكبر منهم ظل ييطن الاسلام ويحافظ سراً على شعائره وتقاليده . قال المقرئ : « كان من أظهر التنصر من المسلمين ، وبقي على دينه خفية ، فشدد عليهم النصارى في البحث حتى أنهم أحرقوا كثيراً بسبب ذلك ، ومنعومهم من حمل السكين الصغير فضلاً عن غيرها من الحديد ، وقامت لهم ثورات في بعض الجبال على غير طائل . »

فقد فهم الاسبانيون أخيراً ان تحويل شعب عن دينه جملة ، بطريق الاكراه ، عمل عقيم لا يؤدي إلى النتيجة المنشودة . ولم يجد نفعاً ديوان التنقيب (Inquisition) ما قام به من الفحص البليغ

عن هؤلاء المنتصرين في الظاهر ، ومن ضروب العقوبات السبرية كالتعذيب والتحرير ، حتى كان عهد فيليب الثاني فأصدر قراراً (١٥٦٥ م) بإخراج العرب المنتصرة من اسبانية كلها الا من حسن ايمانه ولم يلحقه شك في نصرانيته ، وفصل الأولاد الصغار عن آبائهم وأمهاتهم ، فوضعوا في المدارس تحت رقابة الحكومة ليتربوا تربية مسيحية خالصة .

غير انه لم يتم الجلاء إلا في زمن فيليب الثالث ، فأخرجوا اخراجاً عاماً سنة ١٦٠٩ م (١٠١٧ هـ) ، فخلت منهم ربوع الاندلس بعدما عمروها بحضارتهم زهاء ثمانية قرون ، وآضت اسبانية للاسبانيين .

المراجع

المكتب العربية

- ابن الأثير : الكامل
ابن خلدون : كتاب العبر
ابن خلكان : وفيات الأعيان
المقري : نفح الطيب
ابن بسام : الذخيرة
ياقوت : معجم البلدان
البستاني : دائرة المعارف العربية
بطرس البستاني : ادباء العرب ، جزء : ٣

الكتب المنقولة

- يوسف اشباح : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين
(الترجمة العربية : محمد عبدالله عنان)

المكتب الفرنسية

DOZY, *Histoire des Musulmans d'Espagne*,
4 Vol. petit in — 8, 1861.

DOZY, *Recherches sur l'histoire et la
littérature de l'Espagne*. Leyde — E.
J. Brill 1881

CL. HUART, *Histoire des Arabes*,
Gauthner, Paris.

Louis BERTRAND, *Histoire d'Espagne*,
Arthème Fayard, Paris.

E. LÉVI-PROVENÇAL, *Islam d'Occident*.
Librairie Orientale et Américaine,
Paris.

Georges MARÇAIS, *La Berbérie Musulmane*,
Aubier, Paris.

J. BERAUD - VILLARS, *Les Touareg au
pays du Cid*, Plon, Paris.

C. BROCKELMANN, *Histoire des Peuples
et des Etats Islamiques*.
(Traduction française de M. Tazorout),
Peyot, Paris.

فهرست

۵	يوم طليطة
۱۸	معركة الزلاقة
۳۶	رذريق والمرابطون
۶۰	يوم سرقسطة
۷۴	معركة الارك
۹۷	معركة العقاب
۱۱۶	يوم قرطبة
۱۲۷	فاجعة غرناطة
۱۵۵	المراجع

كتب للمؤلف

أدباء العرب :

- ١ - في الجاهلية وصدر الاسلام
- ٢ - في العصر العباسية
- ٣ - في الأندلس وعصر الانبعاث
- ٤ - منتقيات أدباء العرب في العصر العباسية

معارك العرب في الشرق والغرب

معارك العرب في الأندلس

الشعراء الفرسان

توزیع
دارالاجیل
بیروت

To: www.al-mostafa.com